رواية غرام وفلسفة

وصور شتى من معترك الحياة

بقلم

أهداء

الى روح الاستاذ الكبير السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

الى روحك الخالدة فى مخارف الجنـة تحت ظلال الرحمة من ربك يا أمير البيان يتقدم رجل غارق فى أدبك غارف من علمك سابح فى حكمتك بعبرة من عبراتك تسيل من قلمه العاجز الفاتر المعتلج بالهموم والحسرات سيل الدموع من مآقيه فى ليل شـديد الدجنة يتوارد عليه من ذكراه ذكرى الفراق ويستبق اليه من شجونه مثل شجون العشاق وكم سالت « العبرات » من مآقيك على هذا الشعب المرهق العانى فانحدرت منها على القلوب انحدارا مزق غلفها وقطع أفلاذها وتركت لها منها على نفسها ما يترك المذبوح فى ميعة الشباب على شبابه الذاهب .

وكانت تتردد « نظراتك » فترتد علم الله من ألم عليه الى حسرة ومن حسرة الى هم فعالجت فيها ما يعالج الحكيم من أمتـه فإن مت ولم تر أثمار أغراسك مينعة وقطوف

أحلامك دانية فأن بقاياك لاتزال تذهب فينا ذهوب الروح فى المريض المشرف فلا تزال تغالب مرضه حتى يشفى فأن لم يكن الآن فبعد وان لم تر فروحك رائية .

فأن كان فى الكتاب حكمة فمن حكمتك أخذتها أو فضل فمن فضلك استعرته أو قصة شيقة فقد شاقت يامولاى قصصك الناس . أو ان الكتاب قطرة من قطراتك الذاهية سكنت الىّ فنشرتها بينهم

وان كتبت بعد اليوم فأنما أكتب مما أخذت منك وارد الى « الشعب » ما استعرت من أدبك

الطائب

من « طنطا » فى يوم الجمعة ٢٠ صفر سنة ١٣٤٣ من الهجرة و١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤ من الميلاد

مقدمة

« حب المؤلف أن يقدم لمؤلفه »

« مقدمة تشير الى غرضه من »

« وضعه . اما أنا فحسبي ان »

« اقدم روايتي مقدمه لغرضي »

المؤلف

obeikandl.com

المقفر . استطاع أن يجد عند عتبات الدور وعلى أفارزها أمكنة ينام فيها حتى يصرع النهار الليل فيعاود رجاءه واستعطافه . فاذا دهمه مادهمني الليلة التجأ الى مثل ما التجأت اليه ويظن أنه ممن أهنأ الناس وأسعدهم وأنه لقي مالا يلقاه غيره من جمال المكان ومناعة المأوى وأتخذ له من الارض والفضاء بين البروق والصواعق والأمطار مهدا وغطاء ونام عاريا يقره البرد .

وكثيرا ما يمضي ليالى بمضه (١) فيها الجوع ويؤلمه فاذا استطعم فأنما فتات من بقايا أكلة يمن بها عليه رجل « يدعوه » المحسن اليه والمتصدق عليه بعد تكرار السؤال وكثرة الرفض . أو بقية أدم كانت لولا أن صادفته تلقي مع الأقذار والبقايا يلقى من أجلها كثير من الذل والمهانة مما عوده الناس عليه واعتاده لحاجته الى مد يده . وألا فقدمر به النهار لايصيب فيه كسرة خبز يتبلغ (٢) بها ولا يظفر بباقيه أدام يأتدم (٣) به . وتقول

أف لهذه الحياة .

أراهم يتعلقون منها بالأوهام الغرارة تعلق بأذنابهم فلا تكاد

---

(١) امضه الجوع قرصه (٢) يتبلغ بها يستطعمها ويكتفي بها .

(٣) يقول في المصباح أدمت الخبز وآدمة أذا صلحت أساغته بالأدام وهو الطعام

تفارق الواحد منهم . حتى أذا انفرد ألى نفسه جعل يمر عليها مروره على حسناته ويستعرضها استعراضه سيئاته . وهو يحيا عليها بالآمال البعيدة فلا يزال يتأثرها ويترسم (١) خطاها كأنما سيعيش طول العمر ويخلد ألى نهاية الأبد .

وقد يكون لهم من حياة الترف التي يحيونها ومن مسار الحياة التي ينعمون فيها وما يطيب لهم من الحياة دواعي ألي آمالهم يقيمون عليها وينسجون أبرادها .

وأرانا نئن من ويلات هذه الحياة ونتلوى تحت أرزائها (٢) تلوى المصروع أذا غلب على أمره وجثم (٣) عليه صارعه فقبض عليه قبضة عات تمكن منه فلم يعد يستطيع حراكا حتى يسلم بالغلبة أو يقضى عليه . . . ولقد سلمنا بالغلبة لهذه الحياة فنحن الضعفاء المغلوبون على أمرنا لا نستطيع الحياة ولا ننتظر ألا الشقاء : . . الشقاء الدائم نتقلب فيه ونتحمل آلامه .

لقد فقدنا كل شيء حتى الحرية : تلك النسمة الرقيقة التي يتمتع بها جميع المخلوقات حتى الحشرات الضئيلة والسائمة الضالة . والبرق الوامض في ظلام الحياة ودياجيها . والعيش الرغد الذى يهنأ به الكافر والملحد .

---

(١) يترسم خطاها ـ يقفوها (١) الرزء ـ المصيبة

(٣) جثم جثوما ـ برك

وكرهنا كل شيء ألا الموت : فلا يزال الأمل الباقي الذي تنشده من هذه الحياة . وبارقة النور الذي نرجوه فيها .

هذه حالنا ونحن أطفال في أحجار أمهاتنا فلكم بكين كما نبكي من ألم الجوع وهن لا يجدن ما يدفعنه به عنا . وكم أقمنا ليالي بين الحياة والموت . وبين دموعهن الغزيرة وزفراتهن الحارة يدعون لنا الشفاء وندعو لانفسنا الموت فراراً من الشقاء الذي نحن فيه وقد ضلت الرحمة من قلوب الناس جميعاً . وقد اعتادوا منا هذه الآلام فلم يعودوا يهتمون لامورنا ولا يأبهون لحالنا وأصبحنا منهم عند مواقع الاقدام ومراحي الاقذار .

وهذه حالنا ونحن صغيرات لم نعرف من الحياة غير مظاهرها ومن الأرض والسماء غير اسمهما . ونحن يلهينا اللعب والتنقل قاصرة أنظارنا عن ادراك شيء من أسرار هذا العالم وتفهم قدر ما سنبلغ اليه من الشقاء والبؤس بعد انقضاء هذه الأوقات . فقد كنا حفاة لا نعرف النعال الا في أقدام غيرنا من الناس . عراة لا تسترنا الا خرقة هالكة يطاردنا البرد ويغالبنا الجوع حتى أذا ما جن الليل تساقطنا بين آلام شتى متضاربة واعترتنا أمراض شديدة قاسية.

وهذه حالنا على ما أنا فيه من التعاسة والبأساء . ولست أدري ما يكون حالنا في الايام المقبلة ألا أني أحسب أنها لا تتفاوت عنها كثيراً بل قد تكون أكثر مرارة وأشد أيلاماً .

ثم ابتسمت ابتسامة مروعة وتقبض وجهها واربض ونقبه اصفرار شديد أشبه الأشياء باصفرار الميت ساعة فراق روحه وتمسكه بأذيالها فكان مخيفاً تبدي عليه وجوه الأشرار عند ارتكاب الجريمة والشروع في الاثم . واتسعت حدقتاها وظلتا تتوجرجان وجعلت تحدق في الفضاء تحديقاً طويلا بأعين ذابلة متكسرة لاتطرف ولا تختلج . ثم ارتعدت أطرافها وتراخت يداها وارتجفت أعضاؤها . وما لبث أن اعترتها رعدة شديدة عنفت في أنحاء جسمها فجعلت تنتفض انتفاضا عنيفاً دونه انتفاض المحموم أذا تمكن منه الداء. وصرخت صرخة عظيمة دوي دويها كالرعد القاصف في هذا السكون. وترامت على الأرض فجعلت تتلوى وتضطرب كالصروع أذا بلغت به نوبته .

وهنا اشتد انهمار الأمطار وتدفقت تدفق مياه النهر المتحدر من الجبل الشاهق ومض البرق ومضاً شديداً. وهدر الرعد هديراً مخيفاً . ولاح في السماء ضوء غريب . وانقضت الصاعقة . فتلاشت قواها وغابت عن الوجود .

الشيخ

واجتاز بها شيخ يفن (١) يتعثر (٢) على عكازة فأشفق أن يرى في مثل هذه الساعة من اليوم القر المطر فتاة فاقدة الرشد مستلقية على الأرض يهرؤها (٣) القر بين المياه والأوحال. وراعه شدة هزالها وسوء ما هي عليه وأهمه أمرها فانحنى عليها يفيقها. وقد أمسك المطر عقب انقضاض الصاعقة وسكن الرعد وأخذ يظهر الفجر ويتبدد الظلام فأطرق ألى الأرض مكتئباً مهموماً ساعة تشردت فيها أفكاره وذهبت نفسه مذاهب شتي.

قال:

ما للمسكينة تنكرت لها الأيام وطاردها الشقاء وهي لم تفارق عهد الطفولة وتقبيل الشباب يعجز جسمها الضئيل ونفسها المضطربة عن احتمال ما حاق بها ولا أحسبها ألا وحيدة منفردة لا يهم أمرها أحد قد ضنت بين تعاسة العيش وذلته ألم النفس واضطرابها. فتراها ضعيفة معتلة لا يظن أحد من الناس أنها تحيي طويلا. وهي على ما هي عليه من الاعتلال والنحول تتقاذف بين الرعود والصواعق لا تجد مكانا تأوى اليه من منهمر المطر وهول العاصفة: ولا وقوداً تدفأ به من شدة القر. فاذا أعيت وجهدت ترامت فاقدة القوة لا يدري أحد مكانها من الارض ولا يحب أحد أن يلم بشيء

---

(١) عجوز (٢) يتوكأ (٣) يصهرها

مما ألم بها . وقد وقعت من نفسى موقع المريض من نفس أمه . وأثر في ضعفى وشيخوختي بؤسها وشقاؤها وجددت عندي مصائبها وأحزانها مصائبي وأحزانى .

* * *

فلما فتحت عينيها رأت شيخاً كثير الوقار مهيب الطلعة يتدفق رهبة وجلالا ينظر اليها بعينين تفيضان رقة وعطفاً لمحت بين أهدابهما دمعتين انتثرتا على خديه علم الله فيم كان يفكر ساعه انتثارهما . فنظرت اليه نظرة وديعة احتوت من الرقة والشكر كثيراً .

فقال : لقد كنت يا ابنتى فى حال لا يحمدها أحد حتى تداركك الله بفضله . ولعلك تقدرين على المسير ألى مكان لا يبعد عن ههنا كثيراً . حيث تجدين مهاداً ومستدفأ يصلحان لما بك من القر والأعياء .

فقالت : لا أحسبني أقدر يا أبتاه . ولعل قدمي لا تقدران على حملي فدعنى رحمك الله فقد سئمت العيش وطابت نفسي الى الموت

فقال الشيخ : ما أنا بمودعك يا ابنتى وما أحسبك تحتملين على ما احتملت وفى ارتعاد أعضائك واضطراب نفسك دلائل واضحة على أعيائك ومرضك فأنت في حاجة كبيرة الى الراحة والدفء . تستندين على ذراعي فنتعاون المسير جميعاً ولا أظننا نجهد أنفسنا كثيراً .

ثم تناول عكازه ومد اليها يده . واتخذا الطريق وقد القت رأسها على صدره واستندت على ذراعه.

***

وسارا بين أزقة ضيقة وشوارع مملوءة بالأوحال يتلمسان فيها أصلح الطرق ويأخذان سبلهما في جوار الأبنية وتحت الظلال والشرفات . ولبثا يسيران كذلك طويلا الى أن وصلا مرتفعاً من الأرض فسمعا أصواتاً مضطربة ولغباً كانت تصل اليهما كالهمس . ثم تراءى لهما دخان كثيف يرتفع فى الهواء قطعاً كقطع السحاب وتتدلع فيه ألسن اللهب متدفقة تدفع عاء البركان.

وشاهدا بناء فخما تأكله النار . وكان فى أعلاه امرأة مضطربة شاحبة الوجه أحاطت النار بها وامتد اليها لهبها وتجمع حولها . تعدو في أرض الغرفة وتدور حول نفسها كالمجنونة غير مدركة شيئاً من أمرها تنتفض انتفاض الذبيحة يتقدمون بها قرباناً للآلهة . وقد وقفت من الموت موقفاً مروعاً بين طريقين مخطرين لا تدرى أيهما تجتاز اليه . فاما أن تجتاز النار وتجد لها منها سبيلا الى الفرار وهى لا تجرؤ على الدنو منها . واما أن تقذف بنفسها من النافذة فتنتهي الى الأرض مشوهة الخلقة مهشمة الأعضاء. وقد التف الناس حول البناء ينظرون الى النار المستعرة وقد تلاقت أنظارهم جميعاً عند نافذة واحدة كانت المرأة عندها . وأخذت تتعالى بينهم أصوات من الفزع والخوف والاضطراب.

وكان رجلان أو أكثر منهم يدفعون القوم إلى أنقاذها ويعيبون عليهم جمودهم وهم لم يبارحوا أماكنهم ولم يتقدموا خطوة واحدة.

ورأى الشيخ النار تحيط بالمرأة ورأى المرأة تكاد تلقي بنفسها من النافذة فاضطرب واصفر وامتقع وجهه وتقلصت شفتاه وتحجرت عيناه ودفع يديه الى ما أمامه وبقي واقفاً كالتمثال . ثم صرخ صرخة شديدة خرجت تتشى من أعماق نفسه كالحشرجة في قلوب القوم . ورفع يديه الى السماء وانتفض انتفاضة عنيفة . وصاح :

ابنتي . . . سعاد . !

ثم تمايل وارتعد وسقط على الارض وفقد الحياة.

***

وشهد الناس في هذه اللحظة مشهداً آخر فزعوا منه وتبدت أثره على وجوههم علامات واضحة من الخوف والدهشة والاكبار. ولبثوا جامدين يملؤهم الرعب وتدهشهم الرهبة . وينظرون الى النار المستعرة والى فتاة بائسة تجري بملء قواها نحو البناء المحترق وتختفي فيه. واشتملهم سكون رهيب كان لا يسمع فيه إلا أنات النساء ودقات القلوب.

وظلوا يرتقبون عودة الفتاة حيناً حتى سرى اليأس اليهم وتلاشى ما بقي من الأمل عندهم فى عودتها ... فاذا هم على ذلك اذا بها تظهر مفاجأة كالشبح فى جوف الدخان تحمل على ظهرها سعاد وتسير متثاقلة بها ولم تكد تذهب بعيداً حتى ترامت فاقدة القوى . ثم ما لبث أن اضطربت الأرض وتهدم البناء وتطايرت أنقاضه وبقيت تحترق بقاياه.

بين القبور

ولم يبق للناس حديث بعد اليوم إلا عن اقتحام الفتاة النار وأنقاذها ابنة الشيخ وأنها ليست من هذه الديار ولا مما تنبت أرضها. وتحدثوا عن جرأتها وإقدامها النادرين اللذين لم يعهداه في رجل واحد من رجال هذا البلد وعن الأطهار البالية التي كانت تتردى بها. ثم عن اختفائها وأنها لم تعد ترى

وكان أكثر الناس أنصاتا لما يتحدثون ، رجل أسود طويل جلس إلى جانب عجوز تُرثار من صعاليك الحي تقص عليه ما شاهدته من قدوم الفتاة واجتياز النار وتشرح له شرحا مستفاضا . وهو مستمع اليها كثير الأصغاء لما تتحدث به.

فقالت تتم حديثا لها :

ثم رأيتها تحمل سعاد على ظهرها كما تحمل طفلا رضيعا وتجوز بها الدخان المتكاثف والنار المستعرة قبل انتقاض الدار ألى مأمن منه حتى ظن أنه انتقض عليهما واختنقا تحت أنقاضه ألي أن وجد قوم سيدتك ونسوة تعتنين بها ولم يجدوا أثراً للفتاة .

* * *

وقف آدم على أطلال البيت المتخرب ينظر نظرة المكتئب المهموم ألى آثار النار وبقاياها في أعمدته وأحجاره وطرفه وأثاثه

وفى الشجر القائم وفي الهيكل الباقي وقد سدل عليه الليل ثوبا فاحما وقوم منه شبحا مخيفا . وتذاكر آلام مولاه وأحزانه وما آلت اليه أموره فاستعبر وبكى حينا . ثم كفكف دمعه ومشي فى طريق ضيق طويل الى المقبرة .

وهناك عند قبر ناء تظله أشجار التوت رأى سعاد جاثية تبكي وقد نقبت الهموم وجهها بنقاب كثيف وتشعشعت عيناها بالألم المنطوي عليه صدرها . ورأي ظل فتاة تتسلل بين الأجداث حتى أذا وصلت الى قبر الشيخ جثت عنده كالتمثال . فاقترب اليهما وجثا عندهما .

ثم رفعت سعاد رأسها وأخذت تجيل طرفها في كل ناحية من المقبرة حتى وقع على الفتاة فتأوهت تأوها شديداً . وقالت لها :

من أنت أيتها الفتاة وما جثوك عند قبر هذا الشيخ ؟ .

فقالت الفتاة : أنا بائسة ذليلة انتبذتنى الحياة فلم أعرف لى فيها منبتا . وطاردتنى الأيام فلم أستقر من شقائها علي شقاء واحد . لا أزال أنام علي الثرى وألبس أسمالا ممزقة . ولم أر غير قلوب متحجرة لم يرق لى منها قلب . ووجوه عابسة لم يبسم لى فيها ثغر حتى مللت الحياة وملتني وكرهت العيش وكرهنى . ولا زلت أتلمس الموت فى كل طريق أرتجيه فيها الى أن لقيني شيخ كريم . رق قلبه لى وأشفق علي وما زال بي حتى فرج عنى كربي وأزال غمي . ولم أكد أهنأ باشفاقه وأغتبط بحنانه حتى دفعه الموت اليه وفرق مابيني وبينه فأتيت لأجثو عند قبره فأودع فيه الرجل الفرد الذى حنا على وأودع فيه ماتبقي فى نفسي من صفات الناس .

أنا شقية قذفت بى الحياة..
أنا شؤم على من أدنو منه .
أنا . . . . المفقودة .
ثم ضحكت ضحكة عالية واختفت بين القبور .

* * *

وبقيت سعاد محدقة فى الظلام ترقب اختفاء الفتاة حينا استغرقت فيه في ذهولها وتصوراتها. فلما أن انتبهت لأمرها نظرت الى ماحولها محتارة فرأت قبوراً متفرقة فى مكان قفر نسج عليه الليل سحبا من سواده وأشباحا حائرة من فيوء (١) أشجار السدر والصبار متراسلة في طرق متعرجة بين القبور تتراءى كأنها أشباح المردة (٢) فذعرت ذعرا شديداً وتلفتت حولها مرتاعة فرأت آدم جاثيا ينظر اليها بعينين مفاضتين بالدموع . فأشارت اليه فنهضها وخرجت معه ترتجف من المقبرة .

* * *

وكما تذبل الزهرة وتتقبض ويجف عودها أذا امتنع عنها القطر فلم تتندى به فقد ذبلت سعاد وهزل جسمها ورسمت الكآبة على جبينها خطوطا متكسرة برسم مثلها الكبر على وجوه العجزة

(١) فيء الشيء ظله بعد الغروب وجمعه فيوء بالضم وأفياء
(٢) المردة جمع مارد وهو الشيطان

والشيوخ وابيضت شعورها وتغضن وجهها وظهر عليها الكبر مظهراً غريبا وغدت كأنها عجوز هازل أرهقتها الاحزان.

وما زالا سائرين فى شوارع متعرجة حتى انتهي بهما المسير الى بيت صغير منفرد فى ضاحية من ضواحي البلد تحتاطه حديقة غناء جميلة التنسيق فنزلا عنده وأقاما فيه

* * *

ولم تكن سعاد تفارق بيتها الجديد الا يوم الجمعة من كل أسبوع تذهب فيه قبيل الفجر الى قبر والدها الشيخ فتبكيه وتندب حظها فيه.

وكانت كلما ذهبت رأت فتاة فى ثياب سوداء كثيابها جاثية أمام القبر خافضة الطرف فلا تكاد تشعر باقترابها حتى تفر مستترة بالظلام.

وصادف أن فاجأتها ذات مرة جاثية جثيها عند قبر الشيخ تتمتم بين شفتيها أقوالا لم تصل اليها فاقتربت منها وجثت خلفها فسمعتها تقول:

أنا أن جثوت عند قبرك أيها الشيخ الفاني فلا أجثو لان صلة لى تجمعني بك فقد علمت أني وحيدة في هذا العالم ليس لي من تضمنى اليه رابطة ما ولا لأنك كنت شيخا مهيبا أشيب الشعر جم الوقار فقد اعتدت ألا آبه لهذه الخلال وألا أثق بظواهرها فكثيراً ما تكون سبب الحب والخديعة. وكثيراً ما يخفي صاحبها تحت أستارها آثامه وعيوبه.

أنا أنا فتاة أنكر الناس وجودى بينهم ودفعونى تحت مواطيء أقدامهم كأنني خلقت خلقاً آخر فدفعني جمودهم وانكارهم لي الى كراهة الناس جميعاً لم أستثن منهم أحداً . وعلمت أن ليس صفة واحدة من صفات الجمال اتصف بها فرد واحد من الناس .

ورأيتك ترثي لى وتحنوا على فرأيت رجلا واحداً من الناس فضل الناس جميعاً وخالفت صفاته صفاتهم وتشربت نفسه بالرحمة والرفق يشفق على بائسة أغفلها الناس وانتبذوها فطوق عنقي فضلك وغل يدى وأنزلتك منازل الانبياء والمتقين .

ولئن كنت خاطرت بروحى لانقذ ابنتك فلم أجازك شيئاً على ترفقك بى . وسأبقي أيها الشيخ أكره الناس وأحقد عليهم تحقيرهم اياي وازدراءهم بي . وسأبقي أجثو عند قبرك وأطأطيء رأسى اكباراً لك . لانك لست من أهل هذا العالم .

ثم شعرت بيد تلمس كتفها فنظرت فرأت سعاد فقطبت جبينها . وقالت لها :

ما شأنك بى أيتها السيدة ؟

فقالت سعاد :

لقد عرفت الآن أنك منقذتى وأنك أنت الفتاة التى ظللت أبحث عنها حتى خفت أن أمل البحث ولا أجدها فوددت أن أكافئك على فضلك فتعالي الى بيتي وأقيمي معي كما تقيم الفتاة مع أمها فأنا

أحيا الآن كما تحبين وحيدة في هذه الحياة ليس لي فيها غير خادم شيخ .

فقالت الفتاة :

دعيني يا مولاتي وابحثي عن فتاتك . فهل جاء يوم أن فتاة ذليلة شاردة بائسة مثلى لها من جمال الخلق ما يدفع بها فى أحضان الموت لانقاذ امرأة مشرفة على الهلاك لا تمت اليها بصلة قرابة ولا صداقة . أو هل رأيت فى وجهي أثراً من آثار المروءة والشهامة .

ثم ضحكت ضحكة عصبية هائلة وتركتها حيري من أمرها وفرت هاربة من المقبرة .

صحف من الماضي

الرسالة

يرى السائر فى طريقه الى الجيزة قبيل النهر بيتاً قديماً متهدماً تحوطه حديقة مهجورة وعرة المسالك لم يبق بها إلا أعشاب جافة وأشجار أمسك عنها الماء فيبست أوراقها وتقصفت غصونها.

سكن هذا البيت منذ عشرين سنة ونيف قبل حادث الحريق فتى غض الاهاب رائع الشباب جميل الطلعة يدرس في مدارس « الحقوق » ويأمل أن يتم دروسها بعد أعوام ثلاثة . اعتاد أن يمضى أكثر ساعات نهاره بعد خروجه من المدرسة فى مستظل جميل من أغصان البرتقال بين أشجار الورد يطالع فيه دروسه فاذا أتي الظلام جمع أوراقه ودفاتره وذهب الي مسكنه .

وكان منزلا حسن البناء بديع التنسيق تطل شرفاته على الحديقة وتتسلق جدره أعواد الياسمين . يقيم في الطبقة الأولى صاحب المنزل وابنته مى فكانت تعنى بالحديقة وتتعهد الازهار والثمار.

* * *

ذهب خالد إلى مستظله يوماً فرأي على مقعده ضمة (١) من الزهور بديعة التأليف ظن مياً أهملتها (٢) ولا تلبث أن تستعيدها

---

(١) مجموعة من الأزهار أو باقة

(٢) أهملتها هنا بمعنى نسيتها

فتناولها فاذا فيها غلاف صغير قرأ عليه اسمه وعنوانه في عبارة سهلة رشيقة واذا في الغلاف رسالة من مى اليه تقول فيها :

« فى جوف الغيوم المتلبدة من أفكارى تلبدها فى جوف السماء تحجب عن العالم ضياء القمر فلا تدع له مخرجاً ينفذ منه فيبدد من حلك الظلام شيئاً يستنير به الساري المضطرب . وعند ثوران العاصفة واضطراب الأنواء أنظر جازعة الى نفسى متلهفة على شباني الغض أن يتبدد في أوهام باطلة مستراية ومخاوف يخفق منها فؤادي خفوقا أقرب الاشباه بخفوقه عند مرور لفظة الحب به .

وحيث تسكن ثائرة نفسي أخلد ألى الهدوء فأتأمل فى البواعث المستغربة التي جعلتنى محبة تستفيض روحي بالحب الغامض المستكين فيها وناقمة على الحب نقمة شديدة لا أعرف انساناً نقم علي شيء نقمتى عليه . وعرفت كيف تؤلف بينهما في قلب رقيق ضعيف .

وتراني اذا جن الليل فأريقت دجنته علي النهار وأظل السكون العالم واشتمله واشتملنى فراشى أقيم أندب حظي العاثر فى زفرات محرقة ترسلها النار الزافرة فى قلبي ودموع حارة متراسلة لا يتمهل انسكابها فلا أكاد أكف حتى يكف (١) نور القنديل الضئيل المضيء غرفتى ويتلاشي أمله فى الحياة كما تلاشت آمالى فأنام مكروبة مهمومة . فاذا وضح النهار لقيتني جذل باسمة الثغر كأن شيئاً مما

(١) أى يخمد وينطفىء

حدث بالأمس لم يحدث . أو كأن غيرى الفتاة الحزينة الباكية فلا يعرف أحد حتى أبي شيئاً من أحزاني ولوعتي .

ابتسامة واحدة تعودت أن أبتسمها من عهد بعيد . هي ابتسامة الكآبة ... الا أنها تتشابه (١) على الناس فيظنونها ابتسامة الجذل.

تمهل ياسيدي :

يتشعب على النهر عند انتهاء حي... طريقان طويلان متعرجان فاذا شئت فاسلك الطريق الأيسر . فلا تزال تسير بين شجر الجميز وشجر الأثل حتى تنتهي الى حديقة عريضة متخربة يطوقها بناء ضخم قديم ... ففى هذه الحديقة بعد انتصاف الليل بقليل تجدنى أنتظرك .

لقد علمت أنى أحوج الناس الي صديق نقي القلب أستبيحه أسرار قلبي وأشرح له ذات نفسي لعله ينتشلنى من الغمة التى يخيم علي ظلامها . وعلمت أنك الصديق الذى أحتاجه وتأنس اليه روحي. فهل أجدك عند ظنى فيك فتجيب رجاء امرأة ذليلة شقية تضرع اليك؟ أو أنت تاركي كالسلحفاة وضعت عليها حجراً يقعد بها عن المسير فهي تتحرك في محارها ولكنها تموت رويداً رويداً ؟ »

العراك

نشر الليل أرديته السوداء الفضفاضة على النهار فتوارى فيه

---

(١) تلتبس

تثنياتها توارى النجوم فى تثنيات السحب. وظل خالد في الحديقة ينظر الى أزهارها والى رسالة مي والظلام يزداد شدة وحلوكة حتى لم تعد تبصر عيناه شيئاً مما أمامه وبين يديه .....
... فلم يدر الباعث الذى يحدو بفتاة لم يرها قط ولا يعرف شيئاً من أمرها على أن تكتب اليه بمثل ما كتبت « مى » وأن تجرأ على أن تعين له في مكان قفر مهجور وفى ساعة متأخرة من الليل موعداً يتلاقيان فيه . ولم يعرف أن كان الموعد موعد غرام تبث فيه الأفئدة وتسترسل العواطف أو موعداً آخراً لأمور يجهلها الا ن. الا أن الرسالة كانت خلواً من عبارات الحب . وتحاشت فيها الاشارة ألى ذكر شيء من أمرها .

عهد « الفتى » اذا أحب أن يبدأ الكتابة الى حبيبته في رسالة موجزة (١) يتحاشي فيها ألى ما يتخرج منه وعبارة شيقة سهلة أبلغ الي القلوب وأشد تأثيراً فى النفوس وأدعي الى العطف والاستمالة (٢) . ما لم تحفل به مى في رسالتها فقد كتبت اليه . من

---

(١) موجزة . قصيرة

(٢) أقول من سنة الطبيعة أن يكون الحياء أغلب على المرأة المعصومة وأمنع لها من الكتابة الى حبيبها كيفما يكون الحب الذي يضم قلبها من قبل أن يكتب هو اليها . والا ففي حيائها فتور وفي نفسها خشورة

قبل أن يراها وأن يكتب اليها . كتاباً غريباً لم تدع له منه الا رغبة شديدة في الذهاب الى الموعد واستشفاف (١) ما يشغل أفكاره . خلفها فى نفسه الأسلوب الذي اتخذته والغرابة فى تعيين موعد لرجل . لا يمت اليها بصلة ما . في كبد الظلام .

فخرج من الحديقة طويل الأطراق شتيت الأفكار وتغلغل في أعماق الليل فى طرق كثيرة وهو لاه عن نفسه بأفكاره وبالرسالة فيستعيد كلماتها مراراً . لعله يعثر على ما يقتاده الي السبب الذى تدعوه هى من أجله الى لقياها . وما زال يتنقل فى أمكنة كثيرة لم تطرقها قدماه ويطوف فى أنحاء شتي حتي انتهي به المطاف الى شاطىء النهر في المكان الذى يبتدىء منه الي الموعد الذى ينتظره . فجلس علي حجر عند جزع شجرة وأطرق برأسه مفكراً أطراقة طويلة حتى أزف الميعاد فذهب ألى الحديقة ودفع بابها وتسلل بين الأشجار ملتمساً خطاته في الظلام التماس الأعمي حتى رأى نوراً ضئيلا يشع اليه من خلال الأغصان المتحطمة فعرف أنه نور المكان الذى تنتظره فيه وذهب فوجد غرفة عارية الجدر قديمة العهد مما يعد فى الحدائق لحفظ آلات التخطيط والتقليم . ورأى في أحد زواياها فتى جالساً على مقعد من القش متحطم السوق وجاعلا رأسه بين يديه على منضدة نخر السوس قوائمها وتآكلت

(١) استشف الامر . استوضحه

أطرافها وجلست على قرب منه عجوز شمطاء تنبعث أعينها ببريق من الأثم والمكر وتنظر اليه بين آن وآن نظراً طويلا صامتاً . ثم رآه يرفع رأسه ببطء وسمعه يقول :

هل تحسبين ياهند ميا تأتي الينا الليلة أو يبلغ اليأس بها مبلغاً تترك معه أمر نفسها للأقدار ويكون رابها كتابي وحاذرت ما كتبت عن رسائلها . فاعتدلت العجوز في جلستها وانفرجت شفتاها عن أسنان مدردة «١» ونظرت اليه نظراً خبيثاً وقالت :

أن ميا يابني تحذر على كرامتها وشرفها ان تنال وينثلم ولا يهنؤها أن تكون كالسفينة الحائرة في اللجة تتهددها العواصف والأمواج فلا تضن بشيء ويهون عليها كل شيء الا رسائلها اليك فهي تحب أن تستردها فتأمن منك شرك . وأما كتابك فقد تسترد به الأمل الذي فقدته من نفسها ويكون دافعها الى المجيء اليك ومساومتك فيها . ثم طرفت بعينها واستمرت تقول :

لا زلت غراً صغيراً قليل التجارب لا تحسن اختيار الظروف والافادة منها أما كان يمكنك فيما فات أن تنال ما تتلهف عليه نفسك في هذه الغرفة حين كانت تأتي اليك لتبثا غرامكما وتتناجيا عواطفكما . ؟ فقال :

دعينا ياهند من هذا كله فقد زعمت أن يؤول حبي لها الى البناء (٢)

---

(١) متساقطة (٢) البناء . القران

بها . فتمنعت حتى عن تقبيلها . وكنت أظن : أن الحب قلب خافق وصمت طويل (١) وما علمت أنه . الغرام . وأن الغـرام شهوة النفس (٢)

قالت العجوز :

فهل جئت بالرسائل ؟

فقال :

نعم . جئت بها لأردها اليها . ولـكن . . . ثم ابتسم وقال بعد أن تصبح عشيقتي .

* * *

وسمع خالد كل ما قالا فقال يحادث نفسه :

ما رأيت قبل الآن أشقياء يأمرون بمثل ما يأمر هذان . وما كنت أظن أنى أقف فى برهة على سر حيرتي حينـاً . . . أبت مي عليها نفسها أن تجيء ألى هذا المـكان فى الظلام حذراً . وأحست خيفة من هذا الأحمق فساقتنى اليه بعباراتها الغامضة .

لقـد حارت كما تحار كل فتاة بين سبيلين لا بد لها أن تجتاز أحدهما . فاما أن تترك شرفها عرضاً لمثل هذا الفتى الجاهل المستهتر وأما أن تقامر به دفعة واحدة فخسارة هائلة أو ربح كثير . ودفعها

---

(١) هذا مذهب الاشراف فى الحب

(٤) وهذا مذهب المفسدين

اليأس الى الثقة بى وأجازنى الوقوف على أسرارها عساى أن أقدر على رد الرسائل اليها ودفع شر هذا الفتى عنها . فما وقوفى موقف العاجز الحيران ثم عودى بعد ذلك كأنى لم أر ولم أسمع شيئاً لئن فعلت أمسيت شريك هذين الآثمين.

ثم رآه الفتى يقتحم الغرفة وسمعه يقول :

أخطأت فى رأيك ياعزيزى وأنا ناصحك أن ترد لصاحبة الرسائل رسائلها وأن تعلم أن غرور الفتوة وزيف الرأى استاقاك الى ما فعلت . وما سوف تندم عليه . وأنه نزق الشباب دفع بالفتاة الى مصاحبتك ومماشاتك ثم الكتابة اليك وايداع كتبها عبارات الحب وأحاديث الغرام مما تستعيره من روايات العشاق وتراه فى دور التمثيل والسيما (١) وهي لا تعلم أنها تصاحب شريراً مماذقاً وتكتب الى نذل غادر .

ولو تأملت فى الأمر قليلا لعرفت أنه لا يجوز قط أن تغرر بالفتاة أو هامها فتندفع مع ميول نفسها فان فعلت فسقطة لا قومة لها منها أبداً .

وما كان يحسن بك أن تتخذ من ضعف فتاة بريئة وسيلة الى هواك وغيك . وغيرك من أشراف القوم يرشدها الى احترامه وتجلته وصيانة عرضها وأمساك نفسها ... ولكنك كنت رديئاً فاسد التربية

(١) هو السينماتوغراف « عن الرافعي »

فأبت عليك نفسك وسوء خلقك أن تسلك سبيلا شريفا .

فبغت قوله الفتى وثارت ثائرة نفسه وهاج غضبه فصاح به يقول.

قول الاطفال (١) :

من أين لك « ياأيها الرجل » أن تخاطبني بمثل هـذا القول وكيف ساغ أن أظل مستمعاً لك . ثم من أباح لك أن تدخل منزلي. وتقف منى موقف المتسفلين تسترق السمع علي وتعرف من أمري. ما لم أبح لك معرفته به ؟

فقال خالد :

سواء شئت أن أسترق السمع أو لم أشأ فما أنا بتاركك فى ضلالك. تنادي بفتاة لا حول لها فاعطني الرسائل أردها اليها فان شئت فقد أمنت على نفسك والا فاني آخذها منك أكراها رضيت أو لم ترض.

وأنا عارف أين أردها وأقيم معها في بيت واحد .

فقال الفتى :

أو لعلك عشيقها الذى هجرتنى من أجـله أتيت تقول قولا أجوفاً مملولا أنت أحوج اليـه مني فاذهب أن كنت محباً لحياتك. حريصاً عليها وألا فانى ممثل بك تمثيلا لا قبل لك به .

فقال :

تقول قول جبان أخرق الرأى. ألا ترى أن فى رعدك واضطرابك

---

(١) تذكرت قولهم في مثل هـذا الحال : « وانت مالك »

أدلة على ضعفك وخورك ! واحذر أن تصيب مني غضبي فأعاملك بما أكره معاملة لا أحب أن أعامل بها أحداً وسوف أهملك وأتناسى أني لقيت يوماً آثماً رعديداً .

فقالت العجوز وهي تجمع دثارها وتتهيأ للعراك .

لئن لم تنتهين أيها الرجل وتفارق الدار لأصيحن بملء فمي فأملأ المكان بأهل الحي . وهم أولي بك وأقدر على معاقبتك .

فقال خالد :

قبحتما من آثمين أخشى أن أمد يدى اليهما . ألا دعاني أفارق المكان وأنقذكما من شري .

وكان يتكلم بتوؤد وهدوء هاجاه (١) فلم يتمالك نفسه واندفع ألى خالد بسكين في يده طويل النصل اندفاع المجنون . وانقض عليه خالد فأمسك يده ولواها وأفلت منه السكين وقال له :

هذه وسيلة القتلة والاشرار فاحذر من العود اليها واعلم أن السكين الذى يخيف فتاة لا يخشاه رجل قوى وأن هذا السكين لا يصلح لفت الخبز . ثم تبدلت حاله من الكياسة والهدوء ألى العنف والشدة وقبض على عنقه وألقي به على الأرض وختم عليه وما زال يفتش جيوب ردائه ودثاره حتى عثر على الرسائل فأخذها ودفعه عنه وهو يرعد ويفرق . وتركه فتشبثت به العجوز وحالت بينه

---

(١) الضمير عائد على الفتى

وبين الباب فقذف بها فى الحديقة . وقال وهو يفارق المكان :

عودا أدراجكما وأودعا نفسيكما تسول لكما أن تقفا فى سبيلي وتحولا دون مشيئتى فأقذف بكما فى النهر وتكونا قد جنيتما على نفسيكما . ثم ترك الغرفة واختفي فى الظلام

غرام قديم

فلما أن هدأت ثائرة نفسه وذهب إلى فراشه تمرد عليه مضجعه واستباحته أفكاره . فما زال يتغلغل فى أحشائها ويتحدر فى أنحائها ويتقاذف بين أحوائها . وما زالت تموج به وتضطرب حتي انبثق نور الفجر فسمع طرقا رقيقاً ففتح الباب فرأى فى ضوئه فتاة ممشوقة القد جميلة الخلقة تضطرب اضطراب الخائف الحذر . ورأى على وجهها آثاراً مختلفة من الشك والرهبة والأمل والجرأة فنظر اليها نظراً طويلا فقالت له :

أتأذن لى أن أدخل مسكنك فأحادثك فقد يطول الحديث .

ثم دخلت الغرفة وغلقت بابها .

* * *

وقفت بين يديه مطرقة إلى الأرض أطراق الحزين المهموم ووقف أمامها مكتوف الذراعين يتأملها ويطيل النظر اليها .

لم تدر كيف تبدؤ الحديث ولم يدر كيف يبدؤه . فانتظرت

أن يسألها شيئا عما حدا بها الى المجيء اليه على الحال الذي هى عليه وأيقافه منها موقفا محرجا أقرب الى الريبة في أمرهما والى الشك من نفسيهما. وانتظر أن تخبره شيئا عن أمرها. وعما دعاها الى مسكنه.

فلما طال بهما الأمر قال لها :

ما أحوجك يامولاتى الى اخبارى عما قدم بك الى ههنا في هذه الساعة من النهار وبقائك معي على هذه الصورة .

فقالت :

ذلك أن أعرف ما تم فى الأمر الذى التمسته في كتابى اليك فلئن كنت تكبر أتيانى فى مثل هذا الآن وبقائى على هذا الحال فانك تلتمس لى الأعذار أن تعرف أني أقمت زمنا طويلا مشردة الأفكار متعبة النفس بالغ بى اليأس الا بريقا ضئيلا من الأمل نفذ اليه حين فكرت فيك . فأسلمت اليك أمرى واعتمدت على شرفك ومروءتك .

ويدهشك أن بعض هذه الثقة نشأت فى نفسي منذ عهد طويل قدرت فيه نفسك وأخلاقك وبحثت صفاتك وطباعك فراقبتك في قيامك وقعودك وذهابك وعودك وعملك ولهوك وسأمك وراحتك من خصاص الأبواب ومن وراء الأستار . وكان يدفع بى الى ذلك قوة غير عادية لا أعرف مأتاها (١) . فلما أن وقعت من

(١) مبعثها

نفسي موقعا شريفا لجأت اليك من وحشتي واعتمدت عليك في شدتي فان ساءك أني في مسكنك على ما أنا عليه من سوء الحال فان طمعي في عفوك يغفر لي ذلتي لديك .

أنا ياسيدي عذراء رددت اليها شرفها لا خالق ولا منثلم وأنقذتها من عيش سيء مرير أمضت فيه أياما كثيرة من أزهر أيامها فأبقيت على عرضي أن تلوثه أيد آثمة مدنسة وعلى حياتي أن تتلاشى حسرة وكمداً . فان أثر في نفسي بعد فجادثان جليلان متناقضان تأثيراً يتفق في الشدة ويتخالف في الوجه . (١) . . . . كراهتي الرجل الذي استباح مني غفلتي وضعفي الى وسيلة دنيئة اختلف على فهمها فأدخل في روعي ان الحياة العادلة الممتعة التي ارتسم (٢) منه مسارها . وفضلك في انتشالي من الوهدة التي كنت أوشكت ان أتحدر الى أغوارها

هي سقطة سقطتها في النهر يوم « الوفاء » فلم يجترئ أحد من الناس على ان يخاطر بحياته بين الأمواج المتدفقة الوثابة من اجل فتاة ضعيفة مسكينة توشك ان تنقضي حياتها بين عبثها ودعبها الا فؤاد (٣) فقد القي عنه روع الناس وجمودهم والقى بنفسه في

---

(١) الوجه . المذهب (٢) يرتسم يعني يتبع

(٣) هو الفتى الذي كانت تحبه واشتجر معه خالد في الحديقة في المكان الذي عينه مي في رسالتها .

الماء بين طياته وتجعداته وما زال يغالب الأمواج وتغالبه ويدافعها وتدافعه حتي أدركني موشك ان يفقد قواه وموشكة ان أردد آخر انفاسي وما زال يجاهد بي حتى ادركنا الشاطيء .

فكان لزاما علي ان اعترف له بفضله وان اعتقد ان نفسه الرقيقة المخاطرة تضم بين اضلاعها قلبا طاهراً نقيا وان أتمثل في عمله وأهيئ من صورته قدر ما بلغ التأثير من قلبي فأحببت فيه شجاعته وكرم نفسه وصورت خلاله صوراً بديعة متقنة تمثلت دقتها في تمثيل اخلاقه . ولم اكن اعرف اني احب فيه الصورة التي كونتها لنفسي ورسمها لي خيالي . وابقيت عليه سراً من أسرار قلبي فلم ابح به ولم اتذاكره الا بيني وبين نفسي حتى اعترف لي . ثم كاتبني مراراً وتلاقينا مراراً .

ثم علمت انه لا يحبني الحب الذي اريد . وانه لم يكن الطفل الساذج الغرير الذي املته وهويته . وانما رجلا مستهتراً كثير العبث اتخذ من فضله سبيلا الى ميوله يرجو مني تماشيا مع شهوات نفسه . فنفرت منه وقطعت صلتي به . وتعلق بي ورغب في تضليلي ولقيني في رسائله اليه سبلا من اخافتي وارهابي . فما زلت اتخوفه وأخشاه حتى قيض الله لي رجلا امن خوفي وأقال عثرتي .

* * *

فلما بلغت من الحديث عند هذا القول بلغ التأثير من نفسها مبلغاً كبيراً لم تقدر علي التغلب عليه فاغرورقت عيناها بالدموع وبكت بكاء شديداً . ثم كفكفت دموعها وعادت الى الحديث فقالت:

كان حبي فؤاد متنازع ما بين عواطفي وميولي . أو هو حب وهمي أقرب الى التخيل والتصور منه الى الحقيقة . أو أن نفسي كانت تشتاق الحب وتنزع اليه وكان قلبي يصون له منته ويؤمن بفضله . وكنت لا أعرف الفارق بين الأمرين ....

الا أن هناك حباً آخر يتمشى في روحي ويتقد في فؤادي وتنقاد له نفسي لم تتجه اليه خيالات الصغر وأوهام الطفولة وعبث الأحلام ولم تترقبه خلجات الشك ويمازجه الريب ....

ثم أمسكت يده بين يديها وضغطت عليها ضغطاً قويا وقالت له بصوت خافت مضطرب : مثل هذا الحب أحببتك .

وهنا ابتسم خالد ابتسامة ضئيلة فاترة وأخرج الرسائل من جيبه وأعطاها لها وهو يقول :

هذه رسائلك ياسيدتي فان احتجت الي مرة أخرى فأني رهن اشارتك وطوع أمرك .

وكانت أشعة الشمس قد جعلت تنفذ الى الغرفة خيوطاً ذهبية دقيقة تتماوج في ضوء الفجر تماوجها في الفضاء فتناولت منه الرسائل وتركت الغرفة غاصة

* * *

أما خالد فأقام طول يومه يطالع أوراقه ويراجع دفاتره

فلما كان الظلام سمع على بابه طرقاً شديداً ورأي أمامه رجلا أسود طويلا يلهث من التعب والأعياء وسمعه يخاطبه بصوت متأثر حائر ضعيف ويقول له :

اسرع يامولاى فانها تموت

ثم انهمرت عبراته على خديه وجعل يبكى بكاء الاطفال . فقال له:

من هى أيها الرجل ؟

قال :

هى أمك يامولاى وأخشي أن لا تصل اليها .

فرجف قلبه واشتد خفوقه ووقف ينظر اليه بعينين حائرتين

ثم قبض حاجبيه وغمغم يقول .

انك مخطيء أيها الرجل وما عنيتنى فقد ماتت أمى منذ عهد بعيد.

فقال :

كلا يامولاى فانها لم تمت وهى تحب أن تراك وان تخبرك بسر مولدك.

فكأنما قد انقضت الصاعقة من هذا القول على رأسه فجمد في مكانه جمود الصخر لا يتحرك ولا يضطرب واصفر وجهه ودمعت عيناه . فجذبه الرجل اليه وقال :

اسرع بنا يا مولاي .

فقال خالد

وأين أمي وكيف نذهب اليها فى هذا الليل ؟

قال :

سوف تعلم كل شيء عنها . اما الذهاب فهنا جـوادان مسرجان

ثم لم يمض على ذلك قليل حتى كانا ينهبان الطريق نهباً

الذئب

وما زال الجوادان مطلق الأعنة يعدوان عدواً شديداً متداركا. وما زال الفارسان يستحثانهما بين فترة وأخرى حتى وقفا فجأة وأجفلا رغم ما ألهبا جسميهما من ضربات السياط ووخزات المهامين. وكانا يصهلان صهيلا طويلا مزعجاً ويتراجعان تراجعاً مختلا ثم صرخ الرجل صرخة دوية احتملتها الزوبعة فى جوف الليل الى مكان سحيق وصاح يقول :

هذا ذئب .

فنظر خالد فرأى ذئباً كبيراً رائع الخلقة ينظر اليه بعينين حمراوين تتلهبان فى الظلام الحالك كأنهما الجمر المتقد فى فحم الموقدة جاثماً على جواد الرجل ومنشباً (١) أظفاره فى كتفه . فرفع يده وهوى بسوطه عليه هويا شديدا . فتلوى الذئب وعوى ودار حول نفسه وانقض عليه فترجل عن جواده واستل خنجراً من منطقته واندفع اليه وتلاحما زمناً طويلا فكان يطعن الذئب طعنات واخزه (٢) مصماة (٣) والذئب يمزق لحمه ويتلفه بأنيابه ومخالبه

---

١ — بمعنى غارزاً

٢ — اذا خالطت الجوف ولم تنفذ

٣ — قاتله

والدم يتفجر في أرض المكان تفجراً شديداً.

* * *

وما كان الغروب حتى تغيرت السماء واكفهر الجو وتكاثف السحاب وجعل الناس يهيمون على وجوههم ويفزعون الى مآويهم وأقفرت الطرق من المارة ذلك أن عاصفة هوجاء ثارت فى القرية فاضطر الناس أن يمسكوا عن أعمالهم ويأووا الى أعقار دورهم حتي لم يبق ثمت رجل ولم يسمع الا صفير الارواح وتلاطم الامواج.

فلما أقبل الليل وأخيم سواده رهب الناس عواء ذئب رابض فى وجار على أكمة(١) كانوا يخشون الدنو منها ويقطعون الى أغراضهم فلاة (٢) قفر يتجشمون فيها مشاقها.

وكان لهذا الذئب حادث جلل يرجفون من ذكره وتمتلىء قلوبهم خوفا: ذلك أن راعي أبقار ضل ذات يوم عن واحدة فجد البحث عنها حتي استاقه الى وجار (٣) الذئب فرآه يمزق لحمها ويملأ الأرض ببقاياها. ثم ما عتم أن بصر به فانقض عليه وافترسه فسمع صراخه رجال من أهل القرية فذهبوا لنجدته وكانوا خمساً يفؤوسهم وبنادقهم. فما زال الذئب ضارباً بمخالبه مهشما بأنيابه

---

١ — هى مرتفع من الأرض

٢ — الارض المتسعة المستوية التى لا ماء فيها

٣ — مأواه

حتى هلكوا جميعاً . فلما أصبح القوم رأوا أشلاء الرجال والأبقار في كل ناحية من أنحاء القرية .

وكان عواؤه في هذه الليلة أشد منه في الليالي الأخرى وأروع . وكانوا يعتقدون أن حادثاً رهيباً حدث في وجاره وتذاكروا حادث الراعي وتمثلت شدته .

الا أن الذئب أمسك عن العواء فجأة وأظل الوجار سكون عميق وهدأت العاصفة وباتت القرية كأنها من أرض الأموات .

فلما وضح النهار وامتلأت الأرض بالسابلة رأى رجل عند هذا الوجار جواداً ينهك الأرض بقوائمه ويصهل صهيلا طويلا فاهتم بشأنه وذهب الي حيث رأى عند قدميه رجلين ملقيين يغمرهما غمر (١) من الدماء ورأى في جوارهما جثة الذئب ممزقة شر تمزيق .

فطار خبر هذا الحادث الى أهلها وهرعوا جميعاً معجبين من شجاعة الرجلين ودهشين لعظم جثة الذئب ومنقضين وجاره ومدرسين آثاره ... وانتشرت الروايات وكثرت المبالغات .

ثم علموا أن جروح الرجلين بالغة خطيرة . وانهما لم يفارقا الحياة فنقلوهما الى دار رجل سورى من الوجوه (٢) بارح القرية منذ أيام قلائل في وجه من وجوهه (٣) فاستدعت فتاته واسمها

---

١ — الماء الغمر هو الكثير الغرق

٢ — الاعيان

٣ — شأن من شؤونه

سعاد طبيباً من المدينة فجعل يعني بأمرها . وقال: ان الرجل الابيض الطويل لا رجاء منه وحياته فى خطر من الحمي الا اذا روعي وعنى به وشاء الله أن يحيا . وأجاز للفتاة وأمها أن ترعياه في غرفة مفردة. وكتب لهما عن العقاقير واللفائف وظل يعالج الخادم حتى أفاق ولكنه ما لبث أن عاد الى اغمائه .

ثم أبل وتعافى والتأمت جروحه بعد أيام قلائل وقدر على أن يعنى بخالد وكان لم تفارقه الحمي فجعلوا يتعهدونه جميعاً قوام الليل ويتناوبون السهر عليه .

ففي ذات مساء فتح عينيه فرأي فتاة هيفاء فى ثوب رقيق أبيض تنظر اليه نظرة مهموم . ورأي نفسه على فراش وثير في غرفة فخمه الاثاث أنيقة الرياش لم يعهدها . فنظر اليها نظرة هادئة . وقال لها :

من أنت أيتها السيدة وأين أنا ؟ . .

ولكنه قبل أن تجيب انتفض انتفاضة عنيفة وتشرد بصره وصاح:

أماه . أماه ... ثم أغمى عليه .

الذكري

رأي آدم سعاد تبكي عند فراش خالد ونفسها الحزينة تسيل حسرات عليه فتأوه واستعبر وقال لها :

علام تبكين ؟ .

فقالت :

أنا أبكي شباب الفتى الناضر الشجاع وأخشى أن لا يفرق من مرضه (١)

فاشتد بكاؤه وعويله وقال :

وارحمتاه لك يامولاى . فما زلت أراه وأنا بين الحياة والموت أقرب الى من بياضها في يده خنجر مشحوذ النصل يطعن به الذئب المهتاج بخفة طعناً حساً (٢) حتى تركه تحت أقدامه جثة مهلهلة (٣) في غدير من الدماء . ثم تايل كالشارب الثمل وفقد قواه . ولم أعد أرى شيئاً

ثم اشتدت به لوعته فأقام فى ركن من أركان الغرفة وجعل يبكى . وقال :

واحسرتى عليك يامولاى فما رأيت مثالا من الشجاعة والجرأة مثل ما رأيت فيك فلم تفزع نفسك ولم تضطرب حينما لقيك الذئب . ولقيته بقلب قوى وعزم شديد .

وكنت أعجب قبل الآن بابطال القصص والخرافات التى يتحدثون لي عنها وتدهشنى بطولتهم وافعالهم . وكم كان يستفزنى الاعجاب

---

١ — أى يذهب عنه مرضه . ٢ — شديداً

٣ — المراد منها ممزقة

جام وتمجيدهم. فهل تراني أكبر بعد اليوم بطلا غيرك وأعجب الا بك.

لهفي على شبابك الغض افتديته بنفسي على أن تعود الى هذه الحياة معافي فان رجلا أحمسا مثلك أحق بالحياة مني .

واغرورقت عيناه بالدموع وجعل ينشج نشيجا شديداً ويزفر زفيراً حاراً ويئن أنين الثاكل ويتأوه تأوه المكلوم . ثم كفكف عبراته وذهب الى فراش خالد وكان قد تحرك وفتح عينيه وجعل ينظر الي ما حوله نظراً طويلا مشرداً فانحنى عليه برفق وقال له:

ما يؤلمك يامولاي . وكيف حالك ؟

وكان صوته رقيقا جذابا تجتمع فيه كل ما بقي في قلبه من الحب والاشفاق . وكأنما أثرت أنغامه في نفس خالد فأخذ يعود الي صوابه رويداً رويداً . ثم ابتسم له وقال : ماذا حدث ؟

قال :

كنت في عراك شديد مع ذئب كبير فغلبته وقتلته .

فقال خالد :

كأنك تقص علي رؤيا رأيتها في نومي فما جاء بنا الى الذئب ؟

قال :

تذكر يامولاي .

قال :

لا أتذكر شيئا .

فقال :

تذكر أنا كنا نسير الي أمك المريضة

فالتمعت عيناه ومر بيده على جبينه وقال :

وكانت تحتضر فما عاقنا عن المسير اليها ؟

قال :

فأصابك الذئب بجروح بالغة لم تأرك (١)

فصرخ صرخة عظيمة واضطرب في فراشه وقال :

وقد ماتت أمى وفقدت سرها ؟

فعض آدم أصبعه حتى أدماها وقال :

فهذا ما لم أعرف يامولاي

فتحرك في فراشه تحريكا عنيفا . ووقف يرعد فى أرض الغرفة وينظر كالمشدوه (٢) الي ما حوله نظراً غريباً كأنما لا يرى شيئا مما أمامه . ثم أسجد (٣) بصره الي آدم برهه قصيرة وقال له :

أين جوادى ؟

فقال .

أنت لا تزال يامولاى أعجف (٤) قريب العهد بالافراق من مرضك لا تقدر على امتطاء الجياد وتجشم مشاق الأسفار . اذهب

---

١ — تندمل ٢ — المذهول

٣ — أدام نظره فى سكون ٤ — ضعيف

فاطلع على ما تم من أمر المريضة وأعود فأطلعك وتبقي ههنا حتى ترجع وتقوى .

وكانت سعاد تصغي الى الحديث فلما انتهي آدم من قوله قالت تخاطب خالداً

لقد أحسن فيما أشار به فاني أخشى أن تعود اليك الحمى أو تغفر (١) جروحك وأنت لم تزل ضعيفاً لم ترجع (٢) ولم تبرأ منها. فابق ويذهب آدم في حاجتك .

ثم ودعهما آدم وامتطي جواده وذهب يطوي به القفار طيا.

* * *

فلما كان بعد ذلك بأيام شفي خالد من مرضه واندملت جروحه وعادت اليه قواه ولم يبق للضعف والهزال أثراً عليه .

واعتاد أن يقيم في غرفته أحياناً ساعات تتضارب فيها أفكاره وتموج وتضل في غياهب مظلمة في بيداء واسعة من الاوهام والخيالات فتضرب به في مجاهلها . وتتمثل اليه أشباح الحادثات الرهيبة التي مرت به والتي يتوقع أن يتلقاها في صور رائعة ومراء مؤلمة فيخفق قلبه وتضطرب نفسه.

ويرى في غضون هذه الاحلام المشتتة « أمه » في مرقدها الاخير يتحدر الموت اليها في رهبة وسكون قد رسم الحزن والسآمة

---

١ — ينتقض وينكس ٢ — لم ترجع اليك قواك

على وجهها آثاراً مؤلمة ظاهرة عليه ظهورها على لوحة الرسام. لا تكاد تشعر بحركة يتسرب اليها صوتها حتى ترفع رأسها لترى ان كان قد قدم اليها فتشرح له من أسرارها ما أثقل صدرها حيناً طويلا وتتزود منه بقبلة حيث عمرها تتشوق اليها ولم تهن بها. فاذا عرفت بعد ذلك مبعثها ازداد وجهها تغضنا وتقطيباً واشتدت صفرته وعادت الى حالها الاول.

وتتمثل له تلك التي دعاها « أمه » يوماً وبكاها وهي على سرير الموت في النزع الاخير بكاء مرا ترفع أيديها المرتعشة الى رأسه فتحمده وتباركه وتفتح شفتيها الذابلتين وتقول له وهي تلفظ نفسها الاخير قولا لم يزل يرعد في أذنه وكان سبباً دائماً في انقباضه وتشرد نفسه :

ان في حياتك سرا .

وأنه بحث كثيراً على غير هدي وتسكع تسكع الاعمى في الطريق الوعر فلم يستطع أن يهتدي الى شيء من ذلك السر ولا أن يعرف كنهه. فلما أتاه أن يعلم ان أماً غير التي تربى في قلبها وعاش بين حنوها هي أمه وأوشك أن يطلع على ما يحوطه من أسرارها حالت دونه الاقدار وتركته كالعائم على الخشب في عرض البحر يلعن الماء « والمجذاف » .

وكان يذهب أحياناً الى شاطىء غدير في أطراف القرية

فيجلس عند حافته يراقب تسلسل الماء وتحدره وتناسق الاشجار الباسقة على جانبيه فينظر اليها بأعين براقة لبس فيها معنى من معاني الحياة نظراً هادئاً . فاذا تحدر الليل اليه تحدر الماء فى الغدير الجالس على شاطئه وأحس بالظلام يشتد حوله ويتكائف ذهب الى مقامه وعاد فيه الى أفكاره .

وكان أحياناً يتلاقى في الطرق بسعاد أو والدها وهو رجل قصير ممتلىء الجسم كثير الوقار حليق شعر اللحية الى منتهي السابقين فمطلق عنفقته(١) ومطيل ماحول ذقنه بمظهر رجال الفلسفة فى هذا العصر . فيكتفي بالايماء اليهما أو يسيران بين المزارع والحقول وفى حديقة القصر يتجاذبان أطراف الحديث في أمور شتى .

وعلم أهل القرية أنه قاتل الذئب وأنه رجل عالم باسل فأجلوه واحترموه ونظروا اليه نظرة الاكبار والاعجاب .

وكان كثيراً ما يحضر نداويهم « ٢ » ويشاركهم في السمر والبحث والمجادلة ويشرح لهم مالم يلموا بعلمه ويسوق اليهم الحديث في عذوبة ورقة . وكان بينهم الرجل العاقل الوديع الجم الأدب الموفور الكرامة أفرغت في روعه الحكمة والمعرفة .

---

١ — هو الشعر النابت فى الشفة السفلى

٢ — مثل نواديهم وهي جمع تدوه

القبلة

فبينما كان ذات يوم فى الرواح « ١ » جالساً جلسته على الغدير يطالع كتاباً من كتب « التاريخ » اذ بغته صوت اهماج « ٢ » يقترب اليه ورأي على مسقط نظره جواداً يقطف « ٣ » قطفاً عنيفاً ويجمح جموحاً شديداً ويتدفع بفارسه تدفعاً مختلا وهو عاجز عن رده ثابت على ظهره مستسلم للاقدار .

وكان الغدير نهاية لطريق الشارد فيها الجواد فعلم أنه مندفع اليه وقاذف بفارسه في اليم ومورده شر الموارد فاضطرب وفزع ونظر نظرة حائرة سريعة الى ما حوله استردها مفاضة هماً ويأساً .

وكان قد أقبل الجواد عليه فتسلق شجره قريبة منه واعتمد على أغصانها وما لبث أن مر به الجواد كخطف البرق فكان أسرع من مروره الى انتزاع فارسه منه فاندفع فى اليم وتهشم جسمه على الصخور الناتئة .

ثم نظر الى الفارس المخاطر فارتد اليه نظره واكفهر وجهه وتنقبته سحابة من الذهول واذا هو ... بسعاد قد أغمي عليها وارتسم الرعب على محياها . فجعل ينضح الماء على جبينها حتى أفاقت ففتحت عينيها

---

١ — الرواح قبيل العصر

٢ — الاهماج منتهي عدو الجواد ٣ — يثب

بتثاقل وفتور ونظرت اليه نظرة رقيقة تتنازعها معان كثيرة ، ثم رأت جثة الجواد تتقاذفها الامواج فانتفضت . وأشارت اليها وقالت:

لقد أنقذتنى من شر هذا المورد .

فاحمر وجهه وتأوه وفتح فاه ولكنه لم يقل شيئاً . ثم قادته الى ظلال وارف من الاغصان فجلسا تحته على ساق شجرة ملقى على الارض الى جوار بعضهما . وظلاهما سكون طويل كان يسترق فيه خالد النظر الى سعاد بريئاً مشفقاً بها ومفتتناً بجمالها . وكانت مطرقة الى الارض كأنما تفحص أديمها حياء وخجلا . . . حتى هتك حرمة هذا السكون صوته يقول :

لم تحذري ياسيدتى هياج الجواد ورعونته وخاطرت بامتطائه مخاطرة شديدة وانى أحمد الله الذى هيأ لي الأسباب التى أتاحت لى انقاذك حمداً كثيراً . وعسى أن تكوني بخير ولم تنالي بضر .

فماجت بين شفتيه ابتسامة عذبة موجا رقيقا وقالت له : انك تحول دائما دون الشر وتعارض سبيله . وقد كنت أفكر على ظهر الجواد الجامح فى المصير المفزع الذي أندفع اليه مغمضة عينى من الرعب أخشي أن أنظر الى المهلكة التى أنساق اليها منحدرة الى فاتحة أذرعها القاسية مبرقة بين فكيها أنيابها الحادة .

ثم أمسكت بيده وقادته الى شاطىء النهر وأشارت الى أشلاء الجواد . وقالت .

وهكذا كان يكون مصيرى .

فاحمر وجهه وتمتم يقول لها :

لا أدري من يدين للآخر بحياته منا . أما أنت فقد أنقذت حياتى من شر اخي واخطار الجروح وكنت فاقد الصواب لاأدري مما أحاق بى شيئا والموت منحن على مرفرف على رأسي . وأما هذه الحياة التي أبقيت عليها فآن لها أن تقدر فضلك وتشكر يدك فتمكنت من انقاذك اليوم من الخطـر الذى هوى اليك . أما أنت فقد تحملت من أجلي كثيراً . وكنت أحس بك طول الليل ترعيني وأحس بالألم المبرح بك وأنا فى غيبة الحمي فلا أعرف ان كان ما أحسست به حقيقة أوهو من بعض رؤي هذيانها حتى فتحت عيني فرأيتك . فهل تحسبين أنه يتسنى لي أن أنسى ؟ .

كلا ياسعاد . فلا أزال أتمثل نفسي طريحا فى الفراش تنظرين الى بعطف واشفاق تلك النظرات العذبة الفتانة وهي غير ما ينظر بها المشفق الى المريض

فوضعت يدها على فمه وقالت له اسكت :

فأمسك بها بين راحتيه وضغط عليها برفق . ونظر الى وجهها البديع وعينيها الفتاكتين وقال لها . كفاني ما أخفيت يا سعاد الي الآن فى حنايا أضلعى وأعماق فؤادي ! ؟ . ثم مال عليها وقال لها بصوت هادىء ضعيف . انى أحبك . وتلاقت نظراتهما فطوقت

عنقه بذراعيها . وتلاقت شفتاهما وغابا عن الوجود تسرح روحاهما بين أزهار الحب الناضر البريء في عالم غير هذا العالم .

ثم رفع رأسه ونظر الى ما أمامه فاضطرب وامتقع وجهه وتراجع الى الوراء منذعراً مبهوتا واستند الى ساق شجرة وراءه.

فنظرت سعاد الى حيث استاقها نظره فرأت أمها مكتوفة الأذرع تنظر اليهما نظرات قاسية . فقطبت جبينها وظلت صامتة.

فقالت أمها .

ما أجمل ما يكافئنا به هذا الرجل على أبوائنا له وعطفنا عليه . فقد أبت نفسه الخائرة أن تترك قوما أحسنوا اليه فى غبطتهم وهدوئهم من غير أن تكفر بفضلهم وتسيء اليهم . ثم تنقادين اليه انقياد البغي فيدنس شفتيك بقبلات من الاثم والدعارة مستسلمة استسلام المرأة المتبذلة بين يدي مضاجعها فتجتذبك عذوبة الالفاظ ورقة الاحاديث ورشاقة الاسلوب ويستهويك ما يستهوى قلوب العذارى من عبارات الحب الممتعة ومعانيه الطريفة ونعوته ومشتقاته ومترادفاته فلا تدرين أنه يستاقك الى أرض متيهة (١) مضلة يضل منها الى عرضك وأنت ملهاة عنه بما يملأ رأسك منها ويشغل أفكارك. وأنا أبحث عنك في مجاهل القربة واستفسر المارة والجيران وأنت فى أحضان رجل فاجر مريب

---

١ — الأرض المتيهة . المضلة

فرفعت سعاد رأسها وقالت .

حسبك ياأماه . فلا تكثري من تعنيفي وايلامي فانما تندفعين اندفاعا شديداً يهيىء لك سبله ما توحي به نفسك وتصوره أفكارك . وأنت من الصواب كالمدبرين لا يلتقيان الا اذا طافا حول الارض فى طريق مستقيم . فلئن جثوت أمام هذا الرجل وقبلت يده وأفضت فى شكره ولهجت بثنائه وحمده فما أنت بمجزيته شيئا على انه خاطر بحياته ليصون ابنتك . ثم تذكرين عليه أن تقبله قبلة طاهرة نقية تعترف بها بفضله ومنته ولولاه لغدت أشلاء مبعثرة ومزقا متناثرة تناثر هذا الجواد الذى ترين .

اني أحبه ياأماه لأنه شجاع نبيل رقيق الفؤاد طيب المنبت . وأى فتاة لا يستهويها من اجتمعت له هذه الصفات .

ثم جثت أمامها وقالت لها .

دعينا نلهو ياأماه بهذا الحب الذى يختلج بين قلبينا ويتهادى في أحشائنا ويتملك علينا شعورنا . ونسعد به حينا ما . ولا تكوني سببا في تعاستنا وشقائنا . وجعلت تبكي عند قدميها وتضرع اليها .

فقالت أمها .

ما كنت أظن قط انك تنزعين هذا النزوع وتتهاونين في حيائك وأدبك . فأنت فتاة عاقة ملعونة . ثم أشارت الى خالد وقالت له .

أما أنت فإني أطردك من منزلى ولا أريد أن تظل في هذا البلد .

فصرخت سعاد وقالت لأمها ودموعها تترقرق على خديها .

بربك ياأماه ! ! . .

قالت . اذهبي يافاجرة أمامي .. وأشارت الى الطريق القفر الطويل .

وما كادتا تبتعدان طويلا حتى فقد خالد قوته وشجاعته وترامي على ساق الشجرة وجعل يتأوه ويبكي .

* * *

ما أظلم الحياة وما أقساها !

فبينما تينع الزهرة الوارقة من الحب الطاهر وينضر عودها وتتفتح أكمامها فتملأ قلبه الكئيب المهموم وتقوده الى فترة بسامة من غبطة الحياة ونعيمها فتذهب عذوبتها من لواعجه وآلامه . اذا تحول دونها أياد قاسية لا يجتريء على منازعتها فتمزق قلبه مخالبها الفتاكة تمزيقاً لا تحول دونه رحمة ولا اشفاق .

فترات من الهناء وغبطة الحياة لم تقو على مقاومة شيء من همومه وأحزانه . فلم تلبث أن تبددت كما يتبدد الضباب اذا سالت عليه الشمس . وتواردت عليه همومه الكثيرة فملأت قلبة الكسير وهو أولي أن تملؤه مسرات الحياة ولذائذها وانبعثت نفسه الى شتات من أحزانه الماضية .

فظلت تضرب به الافكار فى فدافد (١) الارض ووهادها (٢)

---

١ — الارأضى الصلبة المرتفعة

٢ — الاراضى المنخفضة . والمعنى فى الاثنين اتجاه افكاره كل متجه

حتي مد الليل رواقه (١) واشتدت دجنته (٢) فسمع صوتاً خفيفاً ينادي باسمه فنظر فأجفل قليلا . واذا سعاد واقفة قابضة على عنان أفق (٣) ملجم تنظر اليه فى الظلام نظراً لم يعرف مفاده .فقالت:

دعنا نبارح هذا المكان فأنى لا أحب أن أظل فيه طويلا .

فاضطرب وغمغم يقول : الي أين ؟

فقالت سعاد انى حيث تشاء وتحب الا أن أعود الى دارنا .

فنظر اليها نظرة غريبة طائشة وقال : ماذا تقولين ؟

فأقبلت عليه كثيراً حتي شعر بترداد أنفاسها وقبضت على ذراعه بعنف وقالت له :

هل تحب أن تقيم ههنا وقد حرم عليك البقاء في القرية والمكوث فيها ؟

فاختلج قلبه بين جنبيه وحاول أن يتكلم فاستعصى عليه بيانه وفقد منطقه وحار فيما يقول لها . (٤)

فقالت : ماذا يدهشك من فتاة استهامها حبك فتركت منزلها عابئة بغضب ذويها ونقمتهم عليها ؟ واستباحت من أجلك كل شيء الا أن تهنأ بقربك وتسعد بجوارك . فاما أن تراك خائفاً مرتبكا محاذراً كثير الحيرة كأنما أنت الذى فررت من أحضان أهلك فقد

---

١ — روق جمع رواق وهو أشبه بالخيمة ٢ — حلوكتة

٣ — الجواد الرائع ٤ — أي ارتج عليه القول

خشيت أن يتسرب الي نفسها شيء من الريب والشك .

قال خالد : فاذكري أنه أمر فوق طاقتي اتيانه

فقالت : بل اذكر أنه الحب المتأججة نيرانه بين أضلعي الممتزج بلحمي ودمي المفاضة به نفسي المتشربة به روحي أوحي الي بما فعلت . وهو حب لم يحبه أحد أحداً ولا أحسب أمرأً يقوى على انتزاعه مني الا الموت .

فاهتز اهتزازاً عنيفاً . وخفق قلبه ورعدت أوصاله وأطبق عينيه وتكاثرت عليه همومه وأفكاره وتضاربت به مضارب شتي .

وبحث عن سبيل يأمن به شر هذا الموقف وفكر حتى لم يعد يدري كيف يفكر .

وقد أحب سعاد حباً يضؤل أمامه كل حب ويهون عليه كل أمر من أمور نفسه فلا يقوى علي دفعه عنه الا اذا قوى علي تمزيق قلبه بأظفاره . وهو لا يحب أن يسيء الى قوم عرفوا خلته (١) فأعانوه عليها وأشفقوا عليه وغلوا عنقه بمنهم (٢) وأثقلوا كاهله باحسانهم . فيكون مثله مثل المستجدى (٣) أحسن اليه رجل من المارة فبهر عينيه ومض ما حوي كيسه من الذهب والفضة . فما زال به حتي سرقه وتركه بين أمل من الحياة ويأس من الموت .

---

١ — الخلة بالفتح هنا بمعني الحاجة ٢ — بأنعامهم

٣ — الشحاذ والسائل

قال خالد :

فكيف تجرئين على مفارقة دارك فى هذا الليل وتتقادين الى رجل غريب لا تعرفين من أمره شيئاً .

فرفعت رأسها ونظرت فى الظلام نظراً طويلا . وقالت له بصوت خافت :

ذلك في سبيل الحب .

فقال أتتركين معيشة القصور والحدائق والمساور (١) والنمارق (٢) والدروع المفوفة (٣) والغلائل (٤) المزركشة . وصحاف(٥) الطعام الشهي وأقداح الشراب الهنى. والخدم والجواري والحواشى والسرارى . والمركبات الفخمة والجياد المطهمة . الى بيت موحش حقير الأثاث عتيق الرياش حيث لا أرائك (٦) ولا براجد (٧) ولا منابذ (٨) ولا نمائد وحيث تقومين بحاجات نفسك بنفسك . عيشة الفقراء والمساكين لا تلذ لك ولا تروق فى عينك

---

١ — المتكاءات

٢ — جمع نمرقة وهى مثلها

٣ — الدروع المفوفة . الثياب المنقوشة وفى نقوشها خطوط بيض

٤ — جمع غلالة وهى الثياب الرقيقة كالقمصان

٥ — الصحون ٦ — أسرة العرائس

٧ — أكسية غليظة مخططة تستعمل استعمال الخباء أو «البرافان»

٨ — المنابذ جمع منبذة وأقرب التفاسير لها «الشلتة» فى العامية

. . . . . ثم تقولين بعد ذلك أنه فى سبيل الحب
أفى سبيل الحب تحيين حياة الفقراء والمساكين ؟
وفي سبيل الحب تشقين ؟

فقالت سعاد : لا تخادعني ياخالد ولا تحاول بى عبثاً . فسواء عندي معيشة الأطم (١) والقباب (٢) مادامت تجمعني بمن اخترته وأحببته . فاما أن تبرح بنا الآن الى حيث تقيم أو أنك كنت كما كانت تقول أمي مضللا مغروراً بي . فاذا كان ذلك كذلك فانى ملقية بنفسى فى ماء هذا الغدير .

فتقدم اليها قليلا وأمسك بيدها بين يديه وقال :

لو أني ياسعاد شككت في كل شيء حتى فى قولى ونفسى وضميري فما شككت قط في حبي لك . ومادامت الاقدار نازعتنا وقدرت لنا أن نتلاقى على هذه الصورة فدعينا نغادر القرية وعسي الله أن لا يفرق بيننا

ثم امتطي الجواد وأردفها (٣) خلفه ودفعه دفعاً شديدا

* * *

وكانت الرحلة شاقة فى طريق مفزع فى جوف الظلام بين الاعشاب والأشجار والحصى والنوقائع (٤) . يعكر فيها صفاء الليل

---

١ — القصور ٢ — الأبنية الحقيرة المبنية من اللبن
٣ — جعلها وراءه ٤ — مجامع الماء فى التراب والطين

وسكونه أصوات مختلطة مروعة من ضباح الثعالب وعواء الذئاب(١) وكان القمر فى الربيع الأخير يرسل الى الأرض خيوطا دقيقة من نوره الضئيل لا تكاد تنير منها الا ما يرشد الجواد في مساره وهو يعدو بهما اهماجا (٢) وهما على ظهره أشوق ما يكون حبيبان الى انتهاء الطريق .

فلما كاد يذوب الظلام وأوشك أن ينبثق الفجر . كان خالد يترجل عن جواده أمام الدار ويطرق بابها . فانتظر ريثما فتحت مي . خياها وحيته وهى تطيل النظر اليه والى سعاد نظراً تملؤه الدهشة والاستريابة فابتسم وأشار الى سعاد وقال يسميها هذه زوجتى سعاد ياسيدتي ثم قاد الجواد الى مكان من الحديقة وقاد سعاد الى مسكنه فألقت على ما احتواه نظراً تائها ثم تنهدت تنهدة شديدة وافتر ثغرها الحلو عن ابتسامة خلابة وأقبلت عليه تتهالك في مشيها وألقت بنفسها بين ذراعيه وتعانقا عناقا طويلا .

وطرق الباب بعد حين طرقا خفيفاً فأذن خالد للطارق فدخل عليه آدم ممزق الثياب معفر الوجه يلهث من التعب فدهش وسأله عن خبره فجلس ريثما هدأ قليلا ثم نظر الي سعاد وابتسم ابتسامة عذبة انفرجت عنها أسنانه الفلجة البيضاء وقال لها : لقد كدت

---

١ — أصواتها

٢ — اذا أهمج الجواد عدا بأقصي ما يستطيع من السرعة

أمهرك بحياتي ياسيدي وربما أكون أكثر شغفا بنفسي أن استبقيتها حتى الآن واكتفيت بنسء العصي (١) ولكمات الأيدي

وسكت قليلا ثم قال : ما أسعدني على ما نالني من المشاق والمتاعب أن أراكما رافهين مغتبطين تفيض عينا كما هناء وجذلا ويتدفق وجهاكما سروراً وبشراً . . . كنت أحدث نفسي وأنا مبارح الى المدنية عن تلك النظرات الرقيقة الخلابة التي كانت تفضح عيناك والعطف الكثير الذي كانت تسيل به نفسك وانه غير نظرات الفتاة الى رجل آلم وأكثر من عطفها على امرىء جريح وأن أمراً لا أعلمه يدعوك الى الاهتمام بأمره والسهر عليه . وهو طريح الفراش في غيبوبة الحمى .

فغطت سعاد وجهها بيديها حياء وخجلا . وابتسم خالد وقال له : حدثنا بما تم لك .

قال آدم : نعم . عدت الى القرية والجواد له ضبح (٢) ووقيب (٣) من شدة الاحضار (٤) والزبد يعلو حجفلتيه والعرق يغمر جسمه غمر الماء له . لا يزال يزحر (٤) ويلهث . فرأيت

---

١ — ضربانها

٢ — ضبح الجواد صوت نفسه اذا عدا

٣ — وقيبه صوت بطنه اذا عدا

٤ — العدو السريع المتدارك

٥ — الزحير اخراج أنفاس المتعب في أنين

أفناء (١) من الناس يطوفون فيها (٢) ويتجمعون في طرقها شراذم وثلالا (٣) فأحببت أن أطلع على أمر هـذه الجماعات وأسباب الاضطراب فأردت فئـة منهم . ولـكني ما كدت أتم سؤالى لهم حتى داروا حولى في دائرة ضيقة . وقدم الي رجل شديد فقبض على عنقى وأساء حالى ثم صاح بى يقـول : أخبرنى أيهـا الأسود الحقير ... أين ذهب الرجل والفتاة ؟ .

ولما كنت لم أعرف مما جرى شيئاً ولا كنت أنتظر مثل هذا الحدوث والقول فقـد بغتتنى المفاجأة وحيرت أمرى وخال لى أن من سوء الحظ والتعاسـة ما أوقع بى فى أيادى زمرة من المجانين والمعتوهين فجعلت أديم النظر اليهم وأحملق فى وجوههم وأنا أنتفض من الرعب انتفاض المجرم الفار . فاذا أنا أطيل النظر اليهم وأرى ذلك البريق المنبعثة به حدقهم (٤) واكبر يقيني انهم قوم معاتيـه مجنونون واقدر شر الاقدار واسوأ المصائر بينهم ملكنى الرعب والذهول وبقيت واقفاً مضطربا.

فساء هذا الضئمت الرجل ولـكمنى فى وجهي لـكمة شـديدة فجدلني (٥) على الارض . ورأيت بعد ذلك عصى القوم وسياطهم « نازلة صـاعدة وصاعدة نازلة » تنسأ جسمى نسأ وعشقه (٦)

---

١ — أخلاط من الناس متفرقة

٢ — الضمير عائد على القرية ٣ — أي جماعات

٤ — جمع حدقة وهي سواد العين ـ ٥ ـ جدله . القاه على الارض

٦ — تنسو وعشق للعصا والسوط . صفة الضرب

مشقاً . فصرخت من الألم وصحت بهم أترجاهم وأضرع اليهم وأقول أني سأخبرهم حتى أمسكوا فسألت أقربهم الي أن يشرح لى شيئاً من الأمر فأخبرني بعبارة مقتضبة موجزة وعلمت أنك عدت الى ههنا وأنهم لا بد مرهقي أو أدلهم على مكانك .

وسمعت صهيل الجواد وأنا مشرد الأفكار ورأيته على مدى مني ينكث الارض بحافريه فتحينت غفلة وسلقت (١) الرجل القابض علي عنقي وأفلت من بين يديه وانسدرت (٢) الى الجواد فامتطيته وتركتهم حيارى يقذفون ويلعنون . ثم لم أزل بالجواد أدعه وانهره حتى وصلت الى ههنا

---

١ — القيته على قفاه

٢ — أسرع فى مشيته اليه

الغيرة

فاذ كان آدم يقص هذا الحديث كانت حى تسترق عليهم السمع من وراء الباب . فلما أن أتي علي ذيله أبعدت تسترق الخطى وهي تردد لنفسها : لقد فقدت كل شيء .

فدخلت غرفتها وأقفلت أبوابها ومنافذها وجعلت تسير فيها حيئة وذهوبا بخطوات مضطربة متباعدة وتحرك رأسها حركات غريبة مبهمة وتشير اشارات كثيرة .

وكان وجهها ممتقعاً شديد الاصفرار وعيناها تلتمعان من الغيرة والغضت وفرائصها ترتعد وأطرافها تختلج . وكانت تحادث نفسها بعبارة مختلطه مبهمة فترفع صوتها أحياناً حتى يملأ فضاء الغرفة وتخفضه أحياناً كأنما تهمس همساً .

وقالت :

نعم . لقد فقدت كل شيء حتى الضياء الخالب البراق الذى أقمت عليه آمالى وطويت به صحفى السوداء فانقشع كما ينقشع إذا انهار عليه الظلام . ولم يبق لى الا يأساً مهلكا تنسحق منه نفسى ودمعا مدراراً لا يرقأ انهماره .

ثم وقفت الى المرآة وقفة طويلة تضاربت فيها نفسها وروحها تضارباً يلفته الغيرة فى أشد نوبها . واذا بلغت الغيرة من قلب المرأة

فقد تناست عند هذا المبلغ منها طبيعتها ونقضت ما التزمته منها وظهرت في مظهر بعيد من مظاهر الشر . . . . فكانت تعجب فى المرآة من جمالها واشراقها وتحول خصرها وذبول أجفانها ومن عذوبة ابتسامها وخفة روحها وتثنيها وانكسارها وهيفها وقوامها ما تعجب به المرأة دائماً من نفسها وتنقد من محاسنها وروائها ما يبلغ اليه النقد ولا يبلغ النقد قط الى المرأة المعجبة بنفسها من نفسها لأنها لا تلبث عنده أن تلتمس له أعذاراً تقتنع بها أو تقنع نفسها بها . وكانت تفاضل بينها فى خلاعتها ودعبها وتبرجها وبين سعاد في بهائها ودعتها وسذاجتها . حتى ملت الوقوف فجلست على الارض جلسة المكروب . وقالت تكمل حديثها :

ما أنا بأقل جمال من هذه الفتاة وما هي بأكثر جمال مني الا أنها عرفت كيف تستهيم الرجل الذي أحبه من حيث لم أعرف كيف أستهيمه وتناسيت من نفسي أني امرأة مبتذلة مدنسة لا يليق لها قلب شريف وعاطفة بريئة وأن الفتاة أولى بهما مني . . . . . ان الرجل يحتقر المرأة التي ألقت بنفسها قبله فى أحضان سواه لأنه يعتقد أنها لا قلب لها ولا ضمير فهو على هذا الحسب يحتقرني.

وما أن أتت الى عند هذا القول حتى تصلبت أصابعها وتقبض وجهها ورمع (١) أنفها واحمرت مقلتاها وألقت بنفسها على الفراش

---

١ — حركة الانف

جعلت تتلوى بحركات عصبية عنيفة وتمزق كلته وأغطيته وتعض شفتها وأصابعها وتقطع شعورها . وكانت كالمجنونة فى ثورة هياجها .

وكانت الغيرة تحرق قلبها وتأكله .

وظلت زمناً على هذا الحال حتى امتلكت روعها وهدأت ثورتها قليلا فوقفت في أرض الغرفة مشعثة الشعر مقطبة الجبين تتشعع أعينها غيرة وحقداً وانفعالا . وقالت وهى تقبض أصابعها وتصرف بأسنانها :

ان هذه الضربة أصابت قلبي فمزقته فتلاشى فاذا غدوت بلاقلب فان سنتى أن لا أتألم واذا لم أتألم فأنتقم . لقد كنت كالمقذوفة الى يم من الفساد فلما توقته أو كادت وكانت قد رأت وهجه فظنته نوراً فهويته واستهواها فوقفت بين رفعها اليه وجذبها منه تفكر فى أيهما أحسن اليها وأشهى الى نفسها وأقرب الى روحها . أن لا تزال تهوى الى المقر فتعرف ان كان أفضل اليها الهوى فتحمد نفسها وتسر أو أخطأت فقد عرفت واستفادت . أو أنها تتحاشي الأمر أبداً.. فلما رأت النور عشقته واستهواها فجاءت تنقبه عنها امرأة أخرى فاذا هى لم تجتذب نقابه فويل لها اذا لم تنتقم .....

***

فبينما كانت فى هذه العاصفة الثائرة من نفسها : حدث أمر آخر من أمورنا . فان قاضي المدنية كان يزوج خالدا سعادا وكان آدم

وحده شاهد العقد لا خلان ولا صحب ولا معارف . فلما عادوا وظلوا قليلا جلس آدم يقص على خالد حديث السفر فقال :

كان خوفى عليك من المرض ياسيدي حينما تركت القرية أشد من خوفى على أمك لأنى كنت أعتقد أنها فاضت روحها منذ حادث الذئب وأن الموت ضمها اليه . الا أن رغبتى فى العود السريع اليك كانت تدفعني دائماً الى أركاض الجواد واستحثاثه فوصلت البلد ساعة لم يبق من الظلام فيها الا فلولا جعلت تتبدد شيئاً فشيئاً . ورأيت من وحشة الدار وهدوئها ما قدرت معه خلاءها من القطان فطرقت الباب وأنا أنتظر أن لا يجيب أحد طرقى الا أني قبل أن أعود رأيت امرأة عجوز كانت زوجة الجنان تفتح الباب فسألتها عن أمر أمك فأشارت لى باصبعها أن أخفض صوتي وهمست تقول: انها غالبت الموت وقادمته حيناً طويلا حتى انحل جسمها واضنى نفسها وغلبها اليوم وهو أقرب الآن اليها مني اليك .

وكانت امرأة نرثار فلم أدعها تطيل الحديث وجذبت يدى منها ورقيت الدرج حالا حتى بلغت الى سرير المريضة وكانت تفتح عينيها وحولها الطبيب والعواد . فاذا رأتنى أشارت الى فدنوت فسألتنى بصوت متقطع عما ان كنت جئت معي وأجبتها بعبارة قصيرة عما حال دون المجيء .

فلما علمت هذا القول منى أغرورقت عيناها بالدموع وغمغمت

تقول : هكذا أراد الله أن أموت من غير أن أراه ولا حيلة لي فيما أراد الله . فاذا ما واريتنى التراب يا آدم اذهب اليه فالزمه فى مقامه ومذهبه وفى سكونه وحركته وفي اغفائه ويقظته وفى حزنه وسروره وفى خوفه وسكنه وأسهر عليه وقم على راحته فانى أموت مثلجة الفؤاد مطمئنة النفس . . . وقالت : هـذه وصيتى اليك . ثم انقطعت عن الحديث وضعف تنفسها وأطبقت عينيها فجثيت أمامها وجعلت أضرع وأبكى .

فذكرت تلك الايام الماضى التى كانت تخطر فيها خطران الغزال بين الأفنان والرياحن فلا يزال مائساً بينها مداعباً أوراقها عابثاً بزهرها ولا يزال الناظر اليه يمتع برشاقته وخفته وجمال طلعته ولفتته حتى اذا اقترب منه صدف عنه وولى .

وجعلت أسارها بأقوال مبهمة ومبتورة وأنجوها نجاء كانت تتقطع منه أحشائى . هذا وأنا أظنها قد أسلمت روحها وذهبت حيث مذهب الناس بعد الحياة . ففتحت عينيها في فتور وخشية وأشارت الى ماتحت رأسها فأخرجت أوراقاً كثيرة فى غلاف مبصوم فقالت : هذه تذكاراتي فاعطها ولدي فانى أثبت فيها كل ما يهمه من أمره وأمري . وغلافاً قالت فيه كل ما تبقي من مالي . وقالت : وقل له معزياً ومؤاسياً ان أمك عاشت عمرها تكره الحياة وتنكرها لأنها لم تكن تعرفها الا هموماً وأحزاناً وكانت تستدعي الموت وتستحثه

اليها حتى قضت متعسة منكودة ولكنها مغتبطة هانئة لأنها كانت تخشى أن يطول بها العذاب ولم يلق من الناس مثل ما لاقت الهوان والألم ولكنها كانت ترضاها وتستطيبهما لأنها أبقت على شيء من الأمل فى لقائك مما فقدت من مظاهر الحياة وعلقت به .

وقالت وقل له : وكانت وهى أكثر الناس شغفاً منها الى ضمة تضم ولدها وقبلة هي كل ما كانت ترجو من هذه الحياة .

هذه كلماتها لا أزال أحفظها وأعيها لأنها الكلمات الاخيرة التي فاهت بها امرأة شهيدة لم آلم من شيء في الحياة الا من ألمها . . .

ثم قال : وسرت اليها رعدة شديدة وانتفضت انتفاضة عنيفة واصفر وجهها وتحجرت أحداقها وشهقت شهقة انتزعت حجاب قلبها وخرجت معها روحها .

فبكي خالد ما شاء الله أن يبكي . ثم نشر الصحف أمامه وجلس يطالع مذكرات أمه .

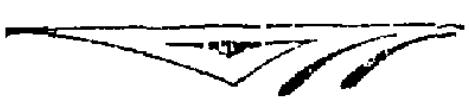

المذكرة الاولى

بين توثب الامواج وعبثها واضطرابها ودعبها واسترسال أشعة الشمس خيوطاً دقيقة متهدلة في هداة من فتنة الطبيعة وجمالها واغفاءه من روعها وسحرها . كانت الباخرة تشق بنا الماء في عرض البحر (١) وتمزق أمواجه في شدة وهوج وترسل الى الافق سحباً من دخانها الكثيف تتقطع فيه تقطع الثفافيد (٢) في جوف السماء وقد انتشر الركب على ظهرها أفناقاً (٣) بين مقتاد من الرضى ومتجاذب من الهناءة . وكان بجانبي رجلان هنديان يتحادثان عن احتفال شائق تعده ملكة اسبانيا لمصارعة الثيران وعن ثور قسب (٤) رائع الخلقة كبير الجثة ابتاعته امرأة ايطالية من صياد من قبائل الزولو وأرسلته اليها على ظهر الباخرة لتقدمه للمصارعة وجعلت لمن ينازله ويقتله سبقاً (٥) سنياً .

فأي لطرقة الى ألف الارض مستغرقة في تصور هذه العادات الممقوتة مارة بخلدي بما قرأت عنها مالا يتفق قط مع الحضارة التي تتأود (٦) فيها أمم أوربا اذا أنا أسمع جلبة مبهمة وضوضاء ورأيت القوم يفزعون في انحاء الباخرة ويختفون بين ثنايا الامتعة

---

١ — وسطه ٢ — هي سحب بيضاء بعضها فوق بعض
٣ — جماعات ٤ — عظيم ٥ — مكافأة ٦ — تتخطر

ويتواثبون على الحبال والصوارى فهيدنى (١) الامر رغم ما أجهل من أسبابه ومرت بى رعدة شديدة لا أعلم مبعثها . ثم ما هي الا نظرة واحدة لم أثنها حتى اضطربت نفسى وصرخت من الرعب وجأجت (٢) فى مكاني . فذلك انى رايت الثور قد جبح (٣) على ظهر الباخرة وجعل يسئد (٤) عليها ثم انحدر اذ رآنى الى مغضبا محنقا حتى اذا دنا مني جمعت ما بقي من قوتى وجعلت أشد على غير هدى وقفاني حتى ضاق على في مكان فلم أجد سبيلا الى الفرار منه وعلمت أنى هالكة وصرخت مرة أخرى وخارت قوتي.

ورأيت وأنا أتمثل النهاية المفزعة بين قرنى الثور وحوافره وأعد على نفسى أنفاسي الباقية وأرددها ببطء واجهاد وأتهيأ للمهلكة فتى حلاحلا (٥) طويل القامة مفتول العضلات قد نزع عنه قلنسوته ورداءه واندفع الى الثور وأمسك بقرنيه وتلاحما تلاحما شديداً

ولا أقدر أن أصف موقفى وصفا مرتبا دقيقا وانما اقتصر على أن أقول أنه كان في مقتل الثور نجاتى وفى نجاته مقتلى . أو

---

١ — أفزعنى ٢ — جأج في مكانه وقف من شدة الخوف

٣ — ظهر فجأة

٤ — يعدو عليها في حمق

٥ — سيد سجاع

كأنما قد علقت روحي في طرف خيط من خيوط العنكبوت فاذا جذبه الثور اليه أتلفها وهذا الخيط حائل دون هذا الفتى مرغم الثور على التنائي عنه

وكنت أنتفض انتفاض الغصن الجاف في متقاذف العاصفة الهوجاء فلا هو لاصق بالأرض معتمد على أديمها ولا منساق في الهواء منقاد لهبه وأراقب بنظر طائشة مجهوده ونفس ضئيلة مضطربة مما كان يبذل الفتى الشجاع في مغالبة الثور المثار فرأيت أوداجه تتضخم ووجهه يتقبض ويتقلص وعلائم العتو بادية عليه وفي نظراته الجافة وحركاته البطيئة وهو يرأرئ (١) الى الثور كأنه أحد الأبطال الذين كتب عنهم هومر الشاعر الاغريقي في «الاوديسي» و «الالياذة» ثم خار الثور فاضطربت أجواز الفضاء ورعدت فرائص القوم ووميض بين شفتي الفتى ابتسامة رقيقة ووميض النجم اللامع في الدجنة الظلماء وأظلم (٢) ثغره وتمايل الثور بين يديه وتخبط على الأرض وقد خضد (٣) عنقه كما تخضد العود .

فاذا يدوم ويشتد هذا الصراع ارتاع واضطرب كأنت نفوس القوم منقبضة وقلوبهم منتفضة رهبة واشفاقاً وكانوا ينتظرون النتيجة

---

(١) رأرأ الى الشيء حدد النظر اليه (٢) اظلم ثغره . تلألأ

(٣) كسر

التى ستنكشف عنها المعركة الا أن أحداً منهم لم يقو على الدنو من الثور .

فلما قتل الثور سمعت ضوضاء وثبجاً (١) ثم لم أعد أرى أو أسمع . فلما فتحت عينىّ رأيت نفس مستلقية على فراشى وبجوارى طبيب الباخرة والشاب ينظر الىّ برفق ورقة نظرة هادئة طاهرة فمددت اليه يدى وقلت له انى عاجزة أيها الباسل عن إيفاء شكرك . فانحنى الىّ انحناءة لطيفة وقال لى : عسى أن تكونى بخير . فقلت : وان ذلك بفضالك . فلم يقل شيئاً ولكنه خرج من الغرفة وأنا أشد إعجاباً به وأكثر ولوعاً بأدبه ومحاسنه . وشعرت اذ خرج بوحشة وضيق لا أدرى مأتاهما .

ولم أره بعد ذلك الا مرة أو اثنتين ولكنه كان يتحاشانى ويرجو أن يكون بحيث لا يرانى . وكنت دائمة التفكير فيه وأحسست من نفسى ميلا الى لقائه ومحادثته فاذا انفردت فى غرفتى وذكرته بينى وبين نفسى اشتد خفوق فؤادى .

وما كنت أعرف لمثل هذا سبباً وما رغبت أن أستوضح معنى من معانيه . الا انى علمت بعد ذلك أنه أمر ما خطر ببالى وما شئت أن أفكر فيه وأنه .... الحب .

---

(١) الثبج اضطراب الكلام

المذكرة الثانية

كان الأمس وما الأمس إلا صفحة من الفضاء طويت كما تطوى الأعمار فى سجل الدهر بين أسف على انقضائها أو لعنة عليها توزع الحياة بين السرور والحزن ليلة رقيقة السواد تركت فيها غرفتى وخرجت الى ظهر الباخرة أروح عن نفسى شيئاً مما نالها من تعب الفكر وأرق السهاد بما أشهد من تلاطم الأمواج الزاخرة وتلألؤ الأنجم الزاهرة ومسيل شعاع القمر ومسبح عباد السحر... وكأنما قد سرت الى نفسى نفس الشاعر الالمانى جوت فيما ألف من كتبه الخالدة « جيتز . وآلام فرتر » وغيرها فانتقلت فجأة من أعماق التفكير وأحراج الضيق الذى أعم نفسى واشتملها الى ابتسامة رقيقة أرسلها سحر الطبيعة وجمالها الى شفتى . ثم ما تمالكت نفسى أن أقول فرحة ضاحكة . ما أجمل ما أرى :

ولم أسر غير قليل حتى رأيت شبحاً بعيداً فى ناحية من أنحاء الباخرة فى صورة بحار منحن على ذراعه فجلست على مقعد فى جواره أستأنس بمجلسه ولكن ما كان أشد دهشى وأكثر ذهولى ان رأيت ان هذا البحار هو ذلك الفتى الشجاع المتلئ قوة وشباباً . وهو قاتل الثور الذى كنت أفكر فيه وكان سبباً فى أرقى . ودهشنى أن يترك الرجل غرفته فى مثل هذه الساعة من الليل وتناسيت

من دهشى أنى تركت غرفتى أيضاً وكان جالساً على مقعد طويل ومسنداً مرفقة الى أحد جانبيه وجاعلا رأسه بين يديه فى شأن لمفكر المجهود . فاقتربت منه ووضعت يدى على كتفه فرفع نظره الىّ ببطء ثم وقف الي جوارى وابتسم ابتسامته العذبة الجذابة وقال ما جاء بك الى ههنا فى هذا الليل ! ؟ فقلت فما جاء بك أنت ؟ قال تمرد على مضجعى ولم يشأ النوم أن يعابث أجفانى وفتنى من رقة الطبيعة ما فتنى وحبب الى رعيها ونجاءها . فقلت فما أحسبك الا كنت مفكراً فى أمر ما . قال فأنا شاعر يقتاده الخيال الى مدى بعيد من التفكير المطلق العميق لا أفيق منه إلا أن أمر بماض مندثر غابر لا يلذ لى أن أمر به ولا يهنأ لى الا أن أمر به فأجتاز فيه أحلاماً شتيتة وأوهاما متبعثرة وأطوف فى فيافى القمر وبياديه وأنشازه وصياذيه (١) وأرقى ضلاع المريخ وأقاوده (٢) وأنحدر الى فلواته ومهامهه (٣) وأسبح فى شعاع الشمس وأغيب فى أغوار الانجم وأضل فى متيهه ميثاء (٤) وأشق مضارب الدأماء سنة الكتاب والشعراء

---

(١) الارض المرتفعة والتى لا يصيبها المطر والعليظة الصلبة (٢) جباله ذلياها وشواهقها (٣) الصحراء البعيدة الافطار فى استواء ومن غير عيون (٤) الارض المضلة اللينة من غير رمال

ثم نظر الى فرأيت احمرار وجهه والتماع عينيه وشعرت بخفوق قلبي خفوقا لا عهد لى به .

ومرت بنا نسمة باردة من نسمات السحر فرعدت منها وألمت من مرورها فقال لى قد اختلف الجو وقر فدعك تعودين الى غرفتك فقلت ولكنى أرقبه مسهدة لا أحسب النوم يواسينى فاذا شئت فتعال معى نتجاذب الحديث كلانا . ثم أمسكت بيده وقدته الى غرفتى

***

وكنت أظن أنى انما اعجب بهوئه (١) وأدبه وان الميل الذى أشعر به هو الميل الذى يتولى كل امرى صادفه ماصادفنى أو الشعور الفياض الذى يدين به الرجل الملقى فى الهوة المحوّاة (٢) اذا لم يرح من لدغات حيات حياتها فقد أراح من الخوف والفرق للرجل القاذف بنفسه فى المهلك الوعر مخاطرا كيما يصون حياته . أو هو الاعجاب به والاعتراف بمنه . أما الآن وانا لا أزال مستلقية على صدره ومطوقة عنقه بأذرعى ونحن ملتصقان ومتعانقان ومتلاقية شفاهنا ومترددة قبلاتنا ومتواثبة قلوبنا فقد علمت ان الافكار الكثيرة التى ملأت فضاء رأسى . والارق الطويل الذى تملكنى وشدة

---

(١) همته

(٢) ذات الحيّات ذات الحمات

اضطراب نفسى لم يبعثها الاعجاب به فحسب .

فتى لمقيمة على هذا الحال اذ انتفضت فجأة انتفاضة عنيفة ونظرت اليه نظرة غريبة ربما لم اعرف مرادها وقلت له بصوت قاس ضعيف وانا اشير الى باب الغرفة :اذهب.

وظننت أن سيألمه قولى ويترك فى نفسه أثراً سيئا فترقبت مايبدو عليه فلم أره الا قائما يتوقد وتاركا الغرفة فى حياء وسكون .

أما أنا فكنت اتألم ألما مبرحا واجاهد نفسى جهادا عنيفا حتى استطعت ان امتلك قيادها وان اقهر العواطف الثائرة فيها وأقول هذا القول .

ولم يكد يبرح الغرفة حتى ترامیت على فراشى منتحبة باكية وقد كنت أوشكت .. أن أبيح له عرضى .

المذكرة الثالثة

الحب . .

« كلمة » تطورت اللغة بها واختلفت العقائد عليها وهى باقية كأنها « أصل » فى اللغة والعقيدة فلم تبل بلى « القديم » ولم ترع روع « الجديد »ولم تقم عليها ثائرة المعارضين وجدل المشيعين قيامهما على القديم والجديد . وكلاهما يشمل كلمة «الحب» . . . فلا لأن

الأدب الجديد .. اختارها فيما اختاره من القديم ولكن لانها تضم بين أقطارها معنى لم ينتهوا الى معرفته ولا يزال يقوم عليه بحث الفلاسفة كأنما هي باقية لانه لم ينته أو لأنه لا ينتهى .

ولا احسب أن حكيما بلغ فيما بلغ من تفسير « معنى » الحب بعض ما بلغ من تفسير معنى « كلمة الحب » . فالحب له معنى والكلمة لها معنى ايضا والمعنيان يشملهما لفظ واحد .

أما أنا فكنت لا أعرف من الحب شيئا . الا كلمة واحدة ومترادفات جمة قلما وجدت كتابا من كتب الادب والفلسفة والتاريخ لم يأت عليها جميعا ولم تمتلىء به بطونها وظهورها .

وهو اشبه « بالروح » فما ان يزال العلماء يبحثون عنها ويجتهدون وراءها حتى اذا مارفعوا رءوسهم وقالوا علمنا . قالوا ان الروح « الحياة »(١)

وكنت اعتقد أن الحب صورة وهمية لحالة واحدة خاصة من حالات القلب والنفس تتغير بتغير التأثيرات فيضؤل أو يكبر بدرجات متناسبة وقد يضؤل احيانا حتى يتلاشى ولا يبقى له أثر أو ينقلب كراهة ومقتا وينمو أحيانا حتى لا يبقى له متسع من القلب والشعور . وهذه الأحوال جميعاً يتصورها الانسان لحالة خاصة من حالات الميل والعطف والاعجاب والاشفاق تتمثل له فى صورة

---

(١) تجد فى القاموس تفسيراً للروح . الحيا .

واحدة لم يألفها فينطلق بها من الوهم المطلق الى حقيقة كاملة
أما الآن . .

فلا أدرى ان كنت أبقيت على شيء من رأيي الاول ولم ينتقض جميعه . . فإنى اعتقد ان تأثير الحب على القلوب اكبر من تأثير جميع العواطف عليها وانه « حقيقة » لا أثر للوهم والخيال عليه

فان اعتقد مرة ان الحب وهم مطلق . وان اعتقد مرة اخرى انه حقيقة كاملة فلا اقف بينهما ولا اتردد اى ان تنقلب عقيدتى مفاجأة فذلك لامراء من تأثير الحب . . وقد يكون من تأثير الاعجاب أيضا !

ولا ادرى ايضا ان كان تبقى لدى ثمت شيء من عوائدى وأحوالى إلا انى الآن طويلة الصمت كثيرة الافكار خفاقة القلب دائمة الزفرات . أو أنى تبدلت فتاة اخرى لاعهد لى بها

انا لا ازال حائرة . فلا ادرى ان كنت احب الفتى لنفسه أو لشجاعته وهوئه وان كنت احببته اذا لم يكن انقذنى وظهر لى بمظهر أشد اختلابا لقلوب النساء من جميع مظاهر الرجال ؟ وان كان ثمت رجل قد مثل تمثيله وأقام مقامه فماذا كان يكون أمرى معه وان كنت أحببت هذا الرجل أيضا . ومعناه حبى الفضيلة والاعجاب موقع

التأثير على القلوب ضم هذه الاحوال هذا لرجل او غيره على جماله أو قوته

والعمل وحده قد يكون سبيلا الى الحب والجمال (١) وحده قد يكون سبيلا اليه . وهنا يختلف على الشرح والتعبير وهنا . فلا أزال أحب الرجل وأحبه لنفسه فحسب . فاذا خلوت الى نفسى تمثلت لى صورته فى مثال جميل رائع لاتكاد تذهب من أمام عينى فلا أزال به أناجيه بعبارات رشيقة ينطلق بها لسانى كأنما يوحى بها الى هذا الحب بيانها وبديعها ومجازها واشارتها فاذا اشتد كفى به ضممته الى صدرى ضما شديدا وقبلته قبلات حاره ثم اعود الى نفسى فاذا انا اضم قلم السرير واقبل كساده

ما سألته قط شيئا عن نفسه وما سألنى فلم اكن اعرف من امره شيئا ولم يكن يعرف من أمرى ومع هذا فان الحب الذى احمل له بين جنبى على جبلى أموره حب لا اخال امرأ من الناس حمله لامرىء آخر ولا احسب قلبا واحدا يتسع لبعض مايشتمل عليه قلبى منه . فلا تزال علائمه بادية فى عبراتى المتدفقة اذا جن الليل فلا يكاد يرقا لها وها . وفى زفراتى الحارة الصاعدة صعود البخار الى طبقات السماء وتقلبى على فراشى طول الليل تقليب الرجل العارى على المدر لاأهدأ ولا انام منه الا عذارا .

---

(١) الجمال الخلق والخلق بالفتح والضم

المذكرة الرابعة

اقول هنا قليلا مما لم أقل من الماضى المنساقة اليه حوادثى التى ذكرتها فى الصحف الأولى . وان والدى اقبل على فى الحديقة ذات صباح وكنت اسقى نبتها واعجبنى زهرة وحشية فجعلت أقيم اعوادها واهيىء ماحولها فلما رأيته هرعت اليه فعانقنى وقبلنى كعادته وجلسنا على مقعد من اغصان الاشجار وتجاذبنا الحديث فى شئون شتى عاديها وغير عاديها حتى قال لى فى حديث له ان دار الخارج فى فرنسا بعثت تنبئه بوفاة خالتى «مارى» وتستحضرنى اليها كيما اشرف على اعمال الحصر فى اخلافها واستلم نصيبى منها فما خلفت غيرى واخي «الفرد» بعدما ماتت أمي ورّاثا

وكانت خالتى كهلة فى الدائرة الخامسة او «الحلقة» لما تغرب بواقى جمالها الذى فني فيما افنى الدهر ولم يبق الا مسحا قليلة مذهوبا بروعها ووقارا يفيض من تقاضيها ولها مال جم واملاك شتى وقصور شم ورياض ومرعى ومقام عظيم بين الوجوه والاعيان ورجال الادب والعلم .

أحبها المركيز « ريشارد فلاندر » وأحبته فلما بلغ الحب بهما مبلغاً لم تستطيعا عنده امساك نفسيهما واخفاء عواطفهما أوحت اليه

أن يختطبها الى أبيها فأبى وكان لا يزال ضابطاً فى « الحرس » لم يدرج الى « المناصب » العالية « والمناصب » العالية مأمل الناس ومصباهم وقصور أمانيهم ما لا يبلغ العاقل فى مثل هذه الحياة اليه فان الناس فيها طبقات كطبقات الأرض والسماء وانما وضعت من غير الوضع الرأسى فى موضع أفق أهنؤهم القليل الرفه الفاتر نظره الى المثال الباحث فى سعادة الحياة من شئون غير شئون الناس وأشقاهم المتقلب فى النعيم الآخذ الحياة من مأخذها حيث السعادة والثراء وهو كلما ازداد غنى كلما ازداد طمعاً ولكن الرجل المعظم فى هذا العهد كما يكون فى كل عهد من العهود الرفيع المكان الغزار المظهر وإنما سواء رفع مكانه وتغزير مظهره من شرفه وعلمه وأدبه أو من سوء نفسه ودهائه وخبثه . وأمل أبوها أن يزوجها رجلا من رجال المعهد العلمى له به صلة وصداقه وله شهرة فى الفلسفة فلما عرفت أن أباها ان يرض تزويجها من ريشار ومكرهها على زواج الرجل واسمه فرانسوا وأكدت اصراره وتعنته اتفقا على الفرار الى حيث يستقيان كما يقول الناس كؤوس الحب هنيئة مترعة وينتهلان مناهله الصافية ويرتبطان برباط طاهر مقدس لا يجرأ على مسه أحد حتى والدها .

وكان فى الحديقة رجل من الخدم كثير الاسنان يتسقط الحديث

ويراقب الخلوة من حيث لا يريابه ولا تشعران به فلما عرف من أثرها ما عرف أبلغ أبها الخبر فما زال متأثرها ومترقبها حتى أقبلت الليلة التي اعتزما الفرار فيها فأمسى طولها أرقا مسهداً خاشياً أن يكون صدقه الخادم فيما أبلغه فلما شط الليل أحس بحركة في غرفة ابنته ورآها من خصاص الباب تجمع أشياءها في حقيبة صغيرة فتأكد أمرها وثارت به ثائرته فدفع الباب ودخل عليها مكفهراً ينتفض ويرعد غضباً وغيظاً فلما رأته على هذا الحال وعرفت من أمره أنه مطلع على أمرها وجأت صدرها (١) بسكين وخرت تضطرب في دمائها . ثم أبلت ورجعت وتزوجت من ريشار فعاشا عيشة هانئة لم يكن يحوجها شيء من أسباب الرفاهة الا طفلا يسعدان به ولكنها لم تلد .

فلما كانت حرب المغرب أرسله القائد في فرقة الابطال اليها فاغتاله رجل فقضى عليه وبينما كانت جنوده تمزق كواكبهم وتشتت فلولها فبكته خالتي ما شاء الله أن تفعل وحزنت عليه ما شاء أن تحزن .

ثم تعشقت الادب وشغفها وانصرفت اليه .

***

(١) طعنته

فقلت ألا ترافقني يا أبتاه .

قال : كلا يا فرا نسليتا فإن الحال الذي عليه الآن مصر وعبث السياسة بها وخطورة الأمر فيها تمنعني من مرافقتك وتضطرني الى مراقبة وجوهها ومجراها وقد كتبت الى صديق لنا في باريز أخبره بسفرك وأطلب اليه أن يعنى بأمرك قال هذا ثم أعطاني اجازة السفر وتركني أهيئ متاعي .

وكانت الدول المدنية مصر قد أنشأت صندوق الدين للاشراف على أموالها ووقف وجود الاسراف فيها فاختارت فرنسا أبي عضواً فيه وجاء اليها وسكنا الاسكندرية في منزل أنيق كنت أظل فيه وأمي منفردتين طول النهار حتى إذا شاء أن ينتهي يعود الينا أبي من القاهرة فلما ماتت أمي بقيت وحيدة لا يؤانس لي إلا جارية سوداء وفتاة من جيراني كانت تتردد علي كثيراً ولم يشأ أخي الفريد أن يعود ويقيم معنا قبل أن يتم علومه في « اكسفورد »

***

فلما رست الباخرة في « مرسيليا » ونزلنا على أرض المينا بحثت عن الرجل (١) حتى أعجزني البحث فلم أهتد اليه . ولم

---

(١) تريد الرجل الذي أنجاها من الموت

أكن أرجو فى هذا البلد أحداً من معارفى ولم أكن أعرف فيها أحداً فجعلت أسير وحيدة فى طرقها وشوارعها وكنت أرسلت متاعى الى فندق من فنادقها فتمنيت فى حيرتى أن أجد الرجل فيكون لى رفيقا منفراً وحشتى وملالى فحينئذ رجعت على نفسى ألومها أن رددته رداً قاسيا على انه خاطر بحياته لينجى حياتى .

وكان لزاما أن أقضى فى البلد الليل فلما يصبح الصباح نقلنى القطار الى « باريز » فذهبت الى الفندق فتغذيت وارتويت فيه وذهبت الى حديقته أطالع مقالا نشرته صحيفة معروفة وجمعت فيه أشتاتا من حياة خالتى ومكانها من الادب وأشارت فيه الى ثرائها وجاهها العريضين ومكانها الرفيع بين المثرين والعلماء. فمررت بالمقال مراً عاديا لم يدعنى فيه ترداد اسم خالتى واسمى وامتاع أسلوبه ورشاقته وما أتى فيه عن حياة خالتى وكثرة الأعداد التى تحصر ثراثها الى النظر اليه بعين غير التى أنظر بها إلى أى مقال آخر رغم انى لم أتل من الصحيفة العريضة سواه وكنت أردد كلماته بين شفتى ترديد الطفل أحرف الهجاء لا يفهم منها الا أن الألف خطا عموديا قصيراً والدال رسم خطين متقابلين يصنعان زاوية حادة فلا يمر بخاطره ان جميع ألفاظ اللغة ومفرداتها وعباراتها ومعاجمها منشأة على هذه الحروف القليانه . فان أفكارى كانت متجهة متجهاً آخر الى حيث الرجل الشاب الشجاع الذى نجانى من الهلاك .

فما رفعت رأسي بصرت به جالساً على مقعد في جوار دوحة مفرعة يطالع كتاباً فانتفضت انتفاضة شديدة لم أتمالك معها نفسي وجعلت تتردد أنفاسي ببطء وأخذ يعلو صدري وينخفض ثم ملكت عواطفي وتمالكت جأشي وعدت الي حالتي الاولى رويداً رويداً

ثم رأيته يقوم ويتوارى بين الاشجار فذهبت الى غرفتي . فلما وضح النهار وأقلني القطار رأيته من نافذته يعدو حتى لحق به موشكاً على السفر .

المذكرة الخامسة

اقمت في باريز أيامها مضافة على اسرة من اصدقائي حتى اتممت أموري واستلمت وثائقي وقد قدر ما ورثته عشرة الف الف ذهبا فرنسيا (١) وهو اثراء كثير ليس في العالم من لا يحمد جزءا منه ويتلمس فيه سعادته. السعادة التي يظنها الناس في المال وذو المال لا يجدها فيه ابدا وانما يجد بواعث من الحيرة في امره ومشاغل نفسه وتكاثر افكاره عليه ومن تدخل الناس في شئونه واحصائهم حركاته وسكناته ومواراته وتملقه ومضايقته فمن مثل ذلك ما ارهقني من اصحاب الصحف اليومية وغير اليومية . والصحف هنا

---

(١) الجنيه الفرنسي « البنتو »

لا تبحث فى المصالح العامة مثلما تبحث فى مصالحها الذاتيـة فاذا وجدت فى المسائل العامة ما يجمع بين الصالحين فقد أحسنت تدبيرها. واجتمع لدى منهم ثلاثة عشر صحفي ومنتدب لا يجتمعون فى شأن من شئون الامة فى حادث من أجل حوادثها ولا شأن لهم الا ان يسألونى على ما بيّنت من شئونى مما يرجونه عما انا موشكة انفاذه وعمله فى مطر من توافه الاسئلة حتى سئمتهم نفسى ومججت حديثهم وكثيراً ما تسأم الناس الصحفيين ويمج حديثهم. ثم نشرت لى صحيفة كبيرة حديثا لم أهدأ بعد نشره من قراءة رسائل كثيرة كتبها الى كثير من الشبان فى صورة من التعارف وصورة من الخطوبة فاتخذ كل منهم أسلوبا رشيقا تكلف فيـه ما تكلف مما تكشف من الكياسة والرقة أما انا فلم آبه لواحدة منها ولم اقرأ الا عددا قليلا.

وكان لهذه الاسرة التى أقيمت فيها ابن فى ربيع شبابه حسن الهيئة جميل الوجـه اسمه الفونس كنت اصحبه دائمـا فى نزهى ومتنقلاتى وكان يتودد الى دائما تودد أمثاله من الشبان التائهين المغرورين الذين يظنون أنهم أقدر برشاقتهم وجمالهم وعذوبة حديثهم ورقة نكاتهم على اختلاب الباب الفاتنات المحصنات واستمالة قلوب الفتيات الفاتنات . . . . . والمرأة أحب الرجال اليها واشهاهم الى

لى نفسها رجل أشم صمة (١) غيداق (٢) حديد الفؤاد قوى النفس أعرف بمواضع الحاجة من أمورها من الأهيف (٣) الاصيد (٤) الدعبوب (٥) الجميل الصورة الكثير الخيلاء الانيق الملبس أهم ما يرجه من شأنه أن يكون موضع إعجاب الناس والتفاتهم . والا فما لها خفرة متأنقة مكحولة الأعين بادية البهرج والزينة ولمن هى فعلة ذلك مادامت ستجد من الرجل الذى توده وتختاره امرأة أخرى ! .

وهم فئة من الشبان وبأيهم هذا العصر الحاضر وتسمت اجواؤه ينتشرون حول الفتاة انتشار « الذباب » فلا يدعونها الا أن تطرق آذانها الفاظ البذاءة وفحش القول وهجره فاذا استمال واحد منهم فتاة غريرة ساذجة فقد طرق حصنها فثلم فيه ثلمة أودت بشرفها وعفافها وهما كل ما تدخر الفتاة لزوجها فلا تلبث أن تهوى هوى الكوكب بين تصاوير الحب وتعاليل الزواج حيث هوى كثيرات من مثيلاتها غرهن ما قد غرها من هذه التعاليل والتأميلات فتعيش عيشة مضطربة مسفهة بين زعانف الناس وسوقتهم كانت ابرأ بنفسها

---

(١) الصمة . الشجاع (٢) جواد (٣) اللطيف الجسم « على الاستعارة » (٤) (٥) المخنث

عنها . والزواج أحب الاشياء للفتاة واخلب لقلبها وأقرب الى مواطن الضعف فيه .

وهم مع ذلك ينكرون الزواج على أنفسهم لأن لكل واحد منهم فى كل يوم ضحية من اولئك الفتيات الغريرات فما حاجة بعد ذلك لهم اليه ويقولون انهم لا يتمنعون عنه حباً فى العزبة والعناس وانما يخشون ان لا يحسنوا انتقاء الزوجة والتمتع بكل ما يتمتع به الزوج من حياة هادئة ممتعة مطمئنة ولكنهم لم يفعلوا ذلك لذلك . وانما يخشون الزواج لنفسه أو يخشون أن يتزوجوا من نساء لا يجدن فى الديار رجلا ينظرون اليهن نظر الرجل لامرأته فيبحثن فى خارج الديار عن هؤلاء الرجال ولئن فعلن ما همهم أن يكونوا ديوثين أومغلوبين (١)

فكأن الفونس يتكلف فى حركته ووقفته وضحكه وابتسامته ولفتته وإشارته ويختار لحديثه أرق الكلمات وأبدعها وأدق المعانى وأبرعها كانما لايحق له ان يتكلم فى حضرتى الا بصفة واحدة منتقاة مذهبة الطلاوة مفقودة الروعة . فلو ان فتاة غيرى هى التى صحبته لأحلته من قلبها محلا من الكياسة واللطف غير ما أحلته ولذهبت فى حبه مذهب « ليلى » و « مجنونها » . أما أنا فقد سمح فى عينى

---

(١) الرجال لاغيرة لهم على أهلهم ودورهم

مرآه ومللت حديثه واجتويت صحبته (١) وآثرت أن أتنزه منفردة لا يرافقني أحد

***

ولم تزل ذكرى اليوم الذى سأتحدث عنه ماثلة أمام عينى كأنما قد علقت بنظراتى فلا أصوبها الى شيء من الاشياء حتى تكون أقرب اليها منه فلا يلبث ان يضؤل ويتفانى وتزداد وضوحا وثباتاً . فان ماصادفنى من حوادثه قد ذهب بنفسى مذهبين متباينين بدأ أحدهما حيث انتهى الآخر وانما من طريق غير طريقه ومتجه غير متجهة وأثر فيها تأثيرين مختلفين تأثير الشر الذى يظل النفوس السيئة أو يستاقها والخير الذى يطارده ويفوز عليه.

لا أحسب العالم يتخلى عن الشر أبدا ولا أحسبه يفقد الخير بدا ذلك لانهما نشآ من منشأ واحد فلا بد ان يجمعهما عالم واحد . وأن هذه الامكنة الكثيرة التى يختلفان اليها ترجع جميعاً الى أصل واحد هو «النفس» ضلت هذه النفس أو اهتدت وخبثت أو طهرت واعوجت أو استقامت ولأن مظاهر الحياة وأسرارها وتقلبها واختلافها تنشأ جميعاً على الشر والخير معاً . ولأنه لابد للخير من الشر والشر من الخير حتى تظهر صفة كل منهما وتبين روعته . والا فاذا كان الشر مسوداً على العالم وحده فمن أين للناس علم الخير

---

(١) كرهت

أو السيئات عنه مادامت نفوسهم جميعاً شريرة لا تهدأ ولا تغتبط :

ولا أحسب الحياة تمر على المغتبط الهانىء بصورة واحدة وحالة واحدة أو أن المغتبط الهانىء يبقى أبد الدهر سعيداً لا يألم ولا يتأسى أو لدام الشقاء بين فئة من الناس ولدامت السعادة بين فئة اخرى

وبدأت من هذا اليوم أعيش عيشة غير عيشتي الأولى لا تماثلها فى شىء مطلقاً من صفاتها وأمورها واحيا حياة أخرى لا تتفق معها أبداً . وأتاح لى أن أعلم شئوناً كثيرة كنت أجهلها وكنت أجهد نفسى فى البحث عنها والتنقيب وراءها وارتياد آثارها ومدارسها وان اندرج من حياة البساطة والسذاجة الى حياة التوؤد والتروى ووزن الامور وقياسها وتطبيق منطقها وأحكامها وقوانينها على ما يتسع له عقلى وما يحتمله منها والنظر اليها بعين غير التى كنت أنظر بها اليها . والى حياة أخرى كانت غريبة عنى بعيدة عن إدراكى . وعلمت فيما علمت ان تلك العلوم الكثيرة المختلفة الافنان والبحوث سنى الموارد والمناول ان هى الا صورة المرآة أمام درس واحد من دروس الحياة

***

وكنت قد خرجت فى هذا الصباح منفردة الى غابة صغيرة فى ضاحية من الضواحى أذهب فيها عن نفسى شيئاً من قلقها وتشتتها

فبينما أنا أسير اذا صادفنى الفونس فى هيئته الجميلة وابتسامته العذبة وهوجه وخفته فسلم علىّ ورددت عليه وجعلنا نسير جميعاً بين متناسق الاشجار وغدائر الأزهار ونفائف الاعشاب وتراسلها وتحت ظلل الأعذاق «١» وذوائبها فى طرق لاحبة«٢» ومخارف «٣» متعرجة حتى أشرفنا على أرض سهب «٤» واذا أنا بقبة فى ناحية من أنحائها يحوطها بارض من النبات لم يعم غرسه ولم يتحرك فأشار علىّ أن نذهب اليها فنستريح فيها قليلا وأخبرنى أن له بأصحابها صلة وكنت متعبة فذهبنا فرأيت غرفاً مهملة لا تحوى من الأثث إلا مقاعد ثلاثاً قذرة وحصيراً متهالكا بالياً وفراشاً رثاً فجلست على مقعد وجلس على مقعد آخر . ثم ما لبث ان حاطتنى غمامة كثيفة من الخيالات وصور مما صادفنى من الحوادث جعلت تتهيأ فى هيئات متخالفة متشابهة وغير متشابهة ثم تجمعت جميعها وأخذت تتداخل أجزاؤها وتضؤل حجومها حتى تكونت منها صورة واحدة جميلة منتهي الجمال فى صورة (« الفتى» صارع الثور) ما زال يتقلب حبه تقلب الاجنة فى قلبى فخفق خفوق الغرام

(١) الاغصان

(٢) الطرق الموطاه

(٣) الطرق بين الاشجار

(٤) الارض الواسعة مترامية الاقطار في استواء

واضطرب اضطرابة . وملأنى من الحب مضاضته ولوعته ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة امّلست من بين شفتى من غير ارادة امّلاس الاشياء من محابسها فى هدأة وسكون وتنهدت تنهدة عميقة صامتة ...

ثم رأيت الفونس يمسك بيدى بين يديه ويركع عند قدمى ويقول لى :

الى م أظل مستحيياً مستخذياً مخفياً عنك حبى طاوياً عليه أضلعى متقلباً من رمضائه فى نار مضطراً من ناره فى استعار فأهزل جسمى وأنحله وأضوى نفسى وأسقمها وأنت من لوعتى فى عبث ودعب كأنما يهنأك أن تطوقك قلوب ممزقة يمزقها الحب المضموضة عليه وتفسيره عبرات مهراقة تهرقها لوعته المتفجرة منه وهذا هو الدلال يافرانسلينا لا تزال تشغف به النساء وتتعشقه ولا يزال يصهر العشاق صهر الجليد ويذيبهم ذوب الماء . فأما وقد علمت قوة حبى وشدته واطلعت على ما كنّ قلبى وما أخفى فما ضارك أن تترفقى بى ترفق الرحماء بالبؤساء وتشفقى على اشفاقك على الملتاعين والأشقياء .

فلما سمعت منه هذا المقال دهشنى وأغضبنى غضباً شديداً فأفلت يدى منه بعنف وقلت له فى مقال طويل : لا يا الفونس فما أحسبك إلا مازحاً وما مثل هذا المزاح يعجبنى ولا مثله من يمزح مثالك ومثلى .

فقال ما أردت يا فرانس (١) المزاح قط وما اتخذت أبداً من المجاز الحقيقة ولا استدنيت من الحقيقة المجاز ولم أزل مهموماً مسهداً أقوم غمامة الليل قومة العشاق أرعى وأنجو الأنجم وأسامر وأحادث القمر وأذهب فى شعاعها وضيائها مذاهب السابحين فى أجواف الماء الباحثين عن جوهره ولؤلؤه وبهر الجوهر مثل بهرها (٢) وبهر جمالك وبهائك . ولا أزال أتقلب فى فراشى أغضاء الليل « ٣» كأنما أتقلب على الشوك لا أهدأ ولا أتبسط حتى أرعاك فى النهار فتزول عنى وحشتى وينقضى ألمى.

أنا أحبك الحب الذى لم أحبه أمى التى ولدتنى وأعبدك من دون الله القادر على كل شىء وأهدر دمى تحت أقدامك قطرة قطرة طوع رغبة منك ومشيئة على أن تقولى قولا لايكلفك من الامر شيئاً فأسعد به وأهنأ .

فقلت وقد بلغ بى الغضب مبلغاً عظيما :دع هذا القول أولى بك يا الفونس وإلا فانى مخبرة أمك بأمرك .

قال فلئن فعلت فقد شكوت إليها لوعتى وبكيت بين يديها بكاء الاطفال .

---

(١) تدليل فرانسليتا (٢) بهر الاشعة والاضواء (٣) ظلاما

فقلت كأنك تزداد خبثاً وضلالا فماذا يفيدك هذا القول وماذا تأمل منه ؟

قال كلمة واحدة يبترد بها قلب عالق تضطرب أفلاذه وقبلة واحدة ترتشفها شفتاى من ثغرك ارتشافها من عيون الحياة فتذيب بعض ما بى من لواعج الغرام المعذبى والمالك على قياد نفسى .

فهاجنى القول هياج الأسد الحبيس ولم أعد أملك الرعدة من الحنق والاضطراب من نفس وقلت له فى حدة واختلاط : . . . انك جبان مفؤود فاسد الأخلاق دنىء النفس .

قال : لتضمنى الرذيلة فى ضممها وتغشانى نعوتك ولعناتك ولكنى مشغوف بك يا حياتى مقيم فى حبك وله بجمالك فاعلمى بعض ما يتقد فى أضلعى من مستعر نار هواك ويعم نفسى من قصور لوعته ويفيض بها من جواه ويذيب قلبى من تبله وما أنا صائر اليه من هيومه ثم قولى اذا قلت انه عاشق بائس مفتون أولى بالرثاء له والاشفاق عليه هذا أنا يا فرانس فأهج ما شئت أن تهجى والعنى ماتاح أن تلعنى .

قال هذا ثم رأيته يتبدل فى صور ممقوتة من الهوج سقط عنها نقاب الكيس الذى تنقب به وجذبنى اليه وضمنى ضما شديداً فانتفضت من الغضب والموجدة عليه ودفعته عن نفسى وهرعت الى الباب فحال بينى وبينه ثم أقبل علىّ بجملته وألقانى على الأرض وجثم على

صدرى وأطبق على وهم بى فجعلت أدافعه وأقاومه وأصرخ وأستنجد وأستغيث وقد تملكنى الفزع وملأنى الريب والخوف ورعدت فرائصى ثم خارت قواى شيئاً فشيئاً وخفت صوتى وتلاشت أمواجه فى فضاء الغرفة على جدرها تلاشى أمواج البحر على شطوطه :

إلا انه فى الفترة التى امتلكنى وأوشك أن يستبيحنى فيها سمعت صوتاً مضطرباً شديداً شدة قصف الرعد ورأيت زجاج النافذة واطرها تتطاير فى أرض الغرفة بقايا ونثراً وذلك الشاب « نفسه » (١) قد انقض على الفونس انقضاض النسور فجعل يلطمه ويلكمه ويهزه ويكزه ببسط أكفه وضم يديه ثم ألقاه على الأرض وجمعه بين يديه جمع المتاع وهدهده من النافذة هدهدة الأحجار . وكنت كالمأخوذة المدخول فى عقلها المذهول بنفسها أرى كل ذلك كأنما أرى أحلاماً مقلقة مفزعة . ثم أقبل على الشاب متئداً مترفقاً فوجمت قليلاً ثم ابتسمت وقلت له : انك يا سيدى ملاك الخير لا تزال تحل حيثما يحيق الشر بى فتهلكه وتبيده ولا أزال أجدك فى كل « مكان » أجده فيه .

يقال : انما سمعت هيعة (٢) واستنجاد فأقبلت عليهما وأحسب

---

(١) فى الباخره . صارع الثور

(٢) الهيعة الصوت عند الفزع

انى أتيت حين حاجتك وانك لم تنالى بأذى

فبدأ هذا القول من نفسى قليلا وملكني عنانها فابتسمت له وقلت مؤكدة قولى : بل أحسبك لم تجتز بالمكان مصادفة واتفاقاً .

قال : فانما كنت انزه نفسى واروح عنها فى هذه الرياض المنسقة والمروج النضرة .

فاقتربت منه وأمسكت بيده ونظرت اليه نظراً طويلا هادئاً وقد أعجبنى منه حياؤه ووداعته وبساطة مظهره وجمال خلقه وتلك الشعلة الوقادة من الذكاء المنبعثة من نظراته وقرأت فى عينيه صحيفة عريضة بيضاء ناصعة من نقاء نفسه وطهارة قلبه ثم ابتسمت وقلت له مستحيية ألا تخبرنى ما اسمك .

فقال محمد .

قلت أفكان وجودك فى حديقة الفندق فى « مرسيليا » ولحاقك القطار الآتى الى « هنا » وبقاؤك فى هذا البلد كل ذلك عفواً واتفاقاً اذا كان كذلك مرورك الآن بنا

فاحمر وجهه واضطرب قليلا ولم يقل شيئاً .

ثم قبض على كاتى يدى وجثا امامى وقال بصوت خافت متقطع : . . . انى أحبك

فسرت الى رعدة خفيفة وخفق قلبى خفوقاً شديداً ثم انحنيت عليه وطوقت عنقه بذراعى .

وفى نفس « هـذا » المكان الذى شاء الفونس أن يغتصبنى فيه وينال منى ما تحض عليه ... أسلمت نفس محمداً

وهنا ظهر لى « الفونس » فى صورة بارزة غريبـة رأيت فيها النفس الآثمة الشريرة فى أدق المرائى وأروعها بين موائد الاعراض المثلوبة ومجارى الدماء المسفوكة وتجاويف من الريب والمكر والتغرير وأحافير من الكذب والخداع والرياء وفى خلال تغاضينها وتقوشها ذلك الحب الكاذب الممقوت الذى أقام الفونس طويلا يبثنيه ويشكو مضضه . ومثل هذا الحب يشتبه على المرأة ويلتبس بالحب الطاهر البرىء فتسقط تلك السقطة الشديدة التى لا منجاة لها منها أبد الدهر حيث سقط كثيرات من الفتيات البائسات اللواتى لايزلن مدنسات متسفلات مبذولة أعراضهن معروضة نفوسهن بدرهم يفتتن به ودينار يلبس به ما يصيب فى أعين النظارة ويشوقهن لانفسهم فلا تكاد تتمنع الواحدة منهن عن سوقى قذر وصعلوك مريب كالمتعة المبخسة يفعل بها ماشاء أن يفعل .

هذه الحياة تحياها امرأة ذليلة مبتذلة مثل لهـا الغرام فى مثال دقيق مستهو للعقول آخذ بالقلوب من ابتسامات رائعة عذبة وأشعار مرتلة منسجمة وعبرات منهلة متدفقة وجثى عند أقدامها واضراع

اليها واسترحام بهـا ما يضلل عقلها ويحير نفسها ويرود بهـا موارد شتى كانت تتلاقى جميعاً وتتفق على أن هذه الأحوال أحوال الحب وهذه المظاهر مظاهرة ولم تفكر أبداً انها قد تكون أحوالا كاذبة ومظاهر غرارة موهومة أو أن يكون الحب حباً فاسداً مخجلا . ذلك لانها كانت تسأل نفسها فى كل مرة من هذه المرار ولم تسأل قلبها مرة واحدة ولئن فعلت لصدقها وجلا الأمر لهـا وصوره والقلب مشير أمين صادق لا يكذب صاحبه ولا يختلف عليه

وحب مثل حب الفونس كان يجوس بى أحد مجاسين بعد ما يستبيحنى ما أبحت محمداً ويستوهبنى ما وهبته فاما أن ابنى عليه قسراً وا كراهاً صيانة لشرفى ووفراً لعرضى وابقاء على كرامتى وهو ما يؤمل ويرجو ويتلمس اليه فاعيش عيشة منكودة مملولة متعبة النفس مضطربة الضمير مع رجل أكرهه وأمقته ولا أحفل به ولا أهواه فان لم أشأ فثوى مخيف بين لجج الأمواج فى أعماق البحر اثوى نفس أو مهلكة مفزعة اهلكها فى أغوار الهوة على أسنان الظرب ورءوس الصفواء (١)

فطرقت قليلا ثم رفعت رأسى فاذا أنا بين يدى محمد يشكو الى أمره شكاة صادقة ويبثنى حبه بثاً شديدا . فتنهدت تنهدة

(١) الظرب الصفواء . أحجار مسننة

شعرت بعدها كأنما قد أزلت عن صدرى قهبا (١) كان يضغط عليه ضغطاً شديداً يكاد يلاشى انفاسى ويذهب بروحى

***

فحاولت أن أنسى هذا الحب فكان كمشقص (٢) السهم اذا ترك كبد قوسه فسكن كبد الرجل فاذا رجابرءه وارجاعه فقدرجوت أن أنس حبى . . . الا انه حباً لا أمل فيه . فلم أذهب الى «تولوز» حيث شئت أن أتم علومى واتبعتك الى ههنا ولحقت بجامعتها . وكنت أقيم عشجاً (٣) من الليل أطوف حول دارك واقف تحت نوافذ « غرفتك » فلا أزال كذلك مادام ضوؤها فاذا انطفأ فقد علمت انك تطلبين النوم فاذهب الى منزلى

ولا أزال طول النهار متبعك مؤتثراً خطاتك متخفياً محاذراً لا تكادين تضلين عن نظرى . وكنت أغار عليك من كل شىء حتى من النسيم العابث والأزهار العابقة والأغصان المتدلية وحتى من ابتسام الطبيعة وسحرها غيرة شديدة لا أدرى ما أباحها لنفسى . وكنت أشعر فى كل ذلك بلذة غريبة . والمرء يرجو لمن يحب سعة

(١) جبلا

(٢) مقدم

(٣) طائفة

الدنيا نعيمها وغبطتها وسراءها . أما انا فكنت أرجولك منها شرها ونقمتها وضراءها : ذلك كيما أفتديك بحياتى فاموت فى سبيلك هانئاً سعيداً

وكنت اذا اطمأنت نفسى الى فراشي وراجعت فيما راجعت من فهرس أعمالى تلك الأعمال الطفلية وعلمت من قلة فائدتها ماعلمت رجعت على نفسى ألومها وأنهرها وأقول لها :

الى م يا نفس تتعللين بالآمال الكاذبة كما يتعلل الظامىء الضال فى متائه الصحراء فلا يزال يخوض فى كثيب الرمال وعقنقلها (١) ويتنقل بين عدابها وليبها (٢) ويمش على رءوس الظرب (٣) والمدر فى أوار الشمس ووديقة الحر وعاصف ساقيات الأرواح وسمومها (٤) ونكبائها ودروجها (٥) حتى يقضى عليه قبل ان يبلغ الرى ارهافا وعيا .

وأقول :

مالى وما لتلك الفتاة الأجنبية أفتحسبين وهى من أبناء جنسها

---

(١) المجتمع منها

(٢) مارق وما انحدر منها

(٣) الحجارة الحديدة الرءوس

(٤) الريح الحاره اللافحة

(٥) الريح الدروج .التى تترك لها أثرا في الرمل

لغة ووطناً ودیناً تنظر الی الاکما تنظر المرأة الأوربیة الی أحقر غلام من غلمان الزنوج والبرابرة المستعبدین ؟ . ومالی ولها فی بذخها وثرائها وقصورها الشماء وحدائقها الفیحاء وخدمها وحواشیها وغلمانها وخوافیها ونعیمها وسعادتها

لماذا ترکبین غیر مرکبك وتأکلین من غیر غرسك وتمرحین فی غیر أرضك . أما تعلمین أن الرجل لا یلبس لباس المرأة أبداً والمرأة لا تعمل عمل الرجل ابداً وان من المستحیلات ان یغمض الرجل عینیه ثم یفتحهما فاذا هو ملك قادر عظیم فی حاشیة من فلاسفته وعلمائه ونبلائه ووزرائه وحوله جنود وقواد وله شعب ورعایا . أما یکون هذا حلم وأن الرجل ما زال نائما

ولا أزال أقول مثل هذا القول حتی تلم بإجفانی اغفاءه من النوم فأسبح فی خضمه . . ثم افتح عینی فاذا انا اقول لنفسی کأنما اکمل حدیث الأمس ! . . . الا انه الحب

والحب مبعثه القلب ومناضه الروح ومقامه النفس أی انه یؤثر فیها جمیعاً ویضمها الیه ویتسلط علی مشاعر الانسان ویفنی شخصیته فلا یبقی منه علی شیء الا انه مخلوق کجمیع المخلوقات وانسان ککل الناس .

وقد یحب الرجل من الأمراء والنبلاء الفتاة الحضیرة من عامة الشعب فیعنی بأمرها عنایة لا یعنی ببعضها امرأة من لداته ویجثو

عند أقدامها جثى النصرانى فى بيعته خاشعاً مضرعا وينحنى اليها انحناءة التذلل ويخضع لمشيئتها خضوع العبيد . . . فمتى كان الامير منتزعا عنه كبرياءه وصلفه مهويا بنفسه من سماء عليائها وصميم مجدها هوى الطائر من مجثمه الى درك الشعب مضرعا لفتاة من بناته وهو الآخذ بأعناقهم الموطئ ببطالة رءوسهم أما ذلك لأنه فقد «شخصيته» امام ملك « الحب » العاتى القاهر وجبروته وخلق منه خلقاً آخر له « شخصية » له مطلقاً وانما له « قلب » يحب ويخفق

فما لك اذا أحببت كافرة أو مشركة شرقية او غربية أجنبية أو غير أجنبية ما دام قد استهوى قلبك حبها واستهامه . ومتى كان الدين واللغة والجنسية حائلات بين القلوب او مانعات من موانع الحب او عثرات فى سبيله . كلا . فانى أحبها رغم كل شىء واحبها حتى اذا كرهتنى

وهكذا فقد نقضت بناء الامس لبنة لبنة وانهار ترابه حفنة حفنة . ثم لا ألبث ان اعود الى ما كنت عليه من تطويفى حول دارك ووقفتى تحت منافذ غرفتك وتأثرى خطاك

المذكرة السادسة

وفى اليوم الماضى سافرنا الى ايطاليا من غير ان اودع احداً من اسرة الفونس فبنيت على محمد فى « فينتيسيا » بناء شريفاً

وكتبت الى والدى اقول له انى احب الاقامة فيها بضعة اشهر ريثما يهدأ القيظ وتلين شدته فى « مصر » فسكناً مشيداً (١) منيفاً يشرف على بحر الادرياتيك وابتعنا زورقاً جميلا وعشنا عيشة هانئة لم يكن ينقصها شيء من هناءة الحياة ونيمها (٢) ولذائذها وممتعاتها ولم يكن يكدر صفاءها شيء

فكنا كالعاشقين المقيمين فى معزل عن الناس وممتناء عن انظارهم ومهرب من وشاتهم ولوامهم اكثر من الزوجين المتحابين المتآلفين . نظل هنئا من الليل او طهمة (٣) من النهار عند نافذة من النوافذ او فى شرفة من الشرف متعانقين متلاثمين تضمنا محولة الزلف (٤) وتغشانا هدأته وتزف روحانا فى سماء الحب وتتماوج فى أعطافه فلا ترى أعيننا من نقاء السماء ومؤتلق الانجم الا وجهينا ولا تسمع آذاننا من خرير الماء ودمدمة المور الا دقات قلبينا

أو نبحر بقاربنا الجميل الصغير الى شاطئ من شطوط البحر فنجلس عنده ولا نزال فى عبث وممازحة ولهو ومداعبة ولا نزال

---

(١) المشيد البناء المطوّل .

(٢) نعيمها .

(٣) هنئا وطهمة . قطعة

(٤) الزلفة قبل السحر من ساعات الليل

نبث نفسينا حالنا ونقص على بعضينا غرامنا . ولبثنا على هذا الحال شهرين وعدة ايام كنا فيها أهنأ الناس وأسعدهم حالا وأغبطهم واربغهم عيشاً

فلما كان اليوم الذى أكتب فيه هذه الذكرى جاءنى رسالة من أبى يأمرنى فى لهجة شديدة أن أعود الى مصر فى ركب أول باخرة تبحر من الميناء فهمّنى الأمر وأحزننى وسقط فى يدى وقدرت أن أموراً لا تهنأنى ولا تسرنى تتشوف الى مجيئى الى مصر ومذهبى من ههنا فجلست على مقعد مكتئبة محزونة أفكر فيما يكون من أمرى وأمر محمد

وكأنى زوجة لا أجترئ على الاباحة بزواجى واعلانه محاذرة من أهلى ومخافة عليه (١) وفتاة فى فهم الناس فماذا يكون من أمرها اذا ظلّت ترفض الزواج وتتأباه أما يتسرب الشك فى أمرها الى النفوس وكيف تقوم هذه الزوجة ببعض حقوق الزيجة وواجباتها . واخيراً ... ثم ما هى الامور الموهومة التى تنتظرنى وماذا بلغ عنى؟.

فشككت فى الفونس ...

وهكذا ذهبت أفكارى .

ثم أقبل محمد فأطلعته على ما جاء بالرسالة فسهم وقطب حاجبيه

---

(١) أى على محمد

وأظل وجهه سحابة مكفهرة من الحزن . ثم قال : فماذا ترتئين أنت. وماذا يمنعني أن أذهب الى أبيك فأخبره بأمرنا وأتلمس فى قلبه شيئاً من الحب لك والرفق بى . وماذا يضيرك ان تفعلى !

فقلت لو أنا نطلع أبى على امرنا فانى أخافه وأخشى غضبه واحذر نقمته عليك وعلىّ فهو لا يغفر لى عملى ولا يبرئك منه ولا يرضى بهذا الزواج أبداً . والعاقل من يتدبر فى مثل هذه الأحوال شؤنها ويصرفها بحكمة وروية فلو أن مثل الفونس الذى فعل ما كلفنا رضاءه شيئاً ولكنك على اختلاف ما بينك وبينه عقيدة وقومية ولغة فهو لا يهود لك قط . وأحسن ما أرى أن نعود الى الاسكندرية فتسكن فيها داراً أتردد عليك فيه حتى يتاح لنا ان نطلعه على امرنا ويكون من شرف مولدك ونفوذ والدك وسمو مقامه شوافعاً فان لم يكن فحتى تنقضى أيام قصرى فأكون حرة من أمر نفسى فلا أبالى بعد ذلك بشىء .

***

ثم دخلنا الاسكندرية فى متوع النهار من اليوم الثالث بعد الحديث فقابل محمداً والده وهو رجلا دهثم (١) وقور نيف على الاربعين

---

(١) لين

من عمرو لا يزال أيّما بسام الوجه اسمه عبد الرحمن . . . صاحب متجر كبير فى القاهرة وصديق له .

أما أنا فقابلنى والدى وأخى الفريد وكان قد عاد من اكسفورد فذهبنا الى بيتنا وتحادثنا قليلا فى أمر سفرى ونزهى وفى رسالة أبى وعود الفريد وفى أمور كثيرة وذهبت الى غرفتى .

فلما انقضى هدؤ من الليل دعوت آدم الىّ وطلبت اليه أن يذهب الى محمد فى الغداة فى المنزل الذى نزله وأسميته له فيتفق له على متلاق لنا ويعرف منه ما يجب أن يخبرنى به

وهكذا انقضى اليوم ولم يحدث شىء مما كنت أخافه ولم أعرف شيئاً مما كنت أريد معرفته .

المذكرة السابعة

مضى ثلاثة أشهر لم أدع فيها نهزة لم أنتهزها لموافاة محمد فى المنزل الذى اتخذناه متلاقياً لنا أو مقابلته فى أمكنة أخرى كان يمهد آدم سبيلها .

وكان من غريب الصدف ان أوحى والدى الى آدم ان يراقبنى ويقفو خطاى ويخبره بكل ما يكون من أمرى ما يريب منه وما لا يريب ولست أعرف الذى دفعه الى مثل هذا العمل ومبعث الشك

من نفسه ولا أقدر ان فترض الفروض. وانه فى احداها لا باعث ولا موعز اليه من نفسه أو من غير نفسه وعندى عليه قرائن وأدلة من اختلافه وتجهمه وانما أكبر الظن ان صلة ذلك برسالته الى « فينتسيا » وان الفونس قد وشى اليه بى ومثله على شره وسوئه لا يستنكف الفعل الفاضح ولا يتأبه حين يجد فيه رغبة من رغباته أو نقمة من نقمه وهو لم يزل كارهاً لى وحاقداً علىّ ما لحقه من أجلى . . فى « باريز »

وأما أنا فكنت أطلعت آدم على جميع أسرارى وائتمنته على دخيلة نفسى وكان وهو أعرف الناس بكل شىء منها ما لم يكن يستطيع والدى أن يعرف أبداً أقدرهم على أخباره بها ولكنه لم يفعل وكان أكثر تضليلا به منى ولا أدرى ان كان فعل هذا ترفقاً بى واشفاقا علىّ أو لم يشأ أن يكون سبب الوقيعة بينى وبين أبى وسوق الشر الىّ . ولربما لقيت من الناس رجلا يضعه الناس فى مكان وضيع من المفاضلة لانه وضيع « بنفسه » أى انه ليس من « الاشراف » و « العلماء » و « الاثرياء » ولكنه يحمل فى نفسه قلوبهم وفى هؤلاء من ليسوا من أنفسهم لأنهم لا يمثلون أنفسهم أى انهم لا يمثلون فى أنفسهم الأشراف وهم من الأشراف ومثلهم مثل وعاء الحلوى يعجبك شكله فاذا ما أفرغته اتصالا بما به وجدت فيه جيفة قذرة نتنة . ومثله مثل الفونس فاذا سألت امرأ ان يفاضل بينه

وبين آدم لضحك منك واتهمك لانه لا يرى صحة المفاضلة بين رجلين مختلفتين على ما بينهما من التنائى فى الشرف والضعة . وهذا دائما من غلظ الانسان كثير الغلظ لان المفاضلة لو تمت على الحقيقة من غير مجاز لرجحت عند آدم أى رجوح لأن نفسه لا تتجه فى غير متجه نفوس الاشراف ولخفت عند الفونس أى خف لانه من الاشراف فى هيكله ونفسه من أوضع النفوس وأحقرها .

وكنت قد شعرت بأنى حبلى وأخزنى ذلك وأساءنى وأهمنى منه ما لم يهمنى من امور اخرى فأقمت لياليا طوالا أفكر فى شأنى وما آل اليه حالى وما قد يؤول اليه حال الجنين الذى يرتكض فى أحشائى فاذا بلغ الحزن بى مبلغا لا استطيع معه إمساك نفسى ومغالبته بكيت بكاء شديداً .

واذا اتهم الحزن بالانسان وأنجد حتى ليحسب انه صائر به شر المصائر فلم يبق من صبره وتجلده ما يهون عليه قسوته ويلين من شدته ودفع به فى المدفع المخيف وجد من دموعه سبيلا لتخفيف آلامه وترويح همومه كانما استحالت هذه الآلام والاحزان الى دموع تهذب منها قطراتها كلما سال سائلها .

فلما أخبرت محمداً بأمرى اهتز له وابرنشق وطرب (١) وقد

---

(١) كلها مراتب السرور

يكون طربه لاني سألد منه طفلا يكون غرس حبنا وقطف احلامنا وقد يكون لانه (١) يحول دون تفرقتنا . . حتى اذا شاء والدى ان يفعل . فتكتمت امرى واحتلت على إخفائه ما استطعت وضللت كثيراً بوالدى وأخى إلا أنى لا ازال أخشى ان يراقبا تغييراً فى نفسى . ولا أحسبنى أتمكن دائما من التضليل بهما .

« وبعد » فماذا أفعل وكيف ينتهى الامر فى سبيل هين ؟! .

المذكرة الثامنة

فما ان أزال أتوسل الى السعادة توسل كل امرئ اليها وأطلبها من المطالب التى تتشبه له فيها وأترجاها مما يترجاها منه فاذا ضلّت به وضل عنها فقمتوها وائتمرتها وتعلقت بتهاديلها فاذا هي صورة مموهة متنكرة بها تنكر هذه الدنيا وهى صورة مصغرة منها لا يفهمها الناس كما لا يفهمون الدنيا . لأنهم لا يعرفون انهم يمثلون أدوارهم على « مسرح » هذه الحياة كما يمثل الممثل دوره من الرواية على مسرح «التمثيل» فيمسخ وجهه ويشكل فى هيئته ويغير من صوته ليمثل الرجل الذى يتمثل به ولكنهم لا يمسخون وجوههم ولا يشكلون فى هيئاتهم ولا يغيرون من أصواتهم لانهم لا يحتاجون الى شىء من ذلك .

---

(١) أى الطفل

وأغرب الامر ان يعتقد الناس انهم انما يعملون بعقولهم ومشيئتهم ومن تلقاء نفوسهم لا يتشبهون ولا يمتثلون ولا ينفذون إرادة ولا مشيئة فاذا أشكل عليهم تفسير أمر من أمور الارادة قالوا ان « علم الحياة » عزيز المادة شتيت الابحاث . واذا أعجزهم تفهم أمر من امور الحياة قالوا انه من « علم الحياة الطبيعية » واذا ما جاءهم امر مبهم مستشكل قالوا « قضاء وقدراً » أى لا يصدقون إلا اذا أحوجهم المثل وضاق بهم التعليل . وهم يقولون لمن يقول ذلك « فيلسوفا » لا لانه عرف قيمه الحياة وما هى وضلع فى علومها وأفنانها وبحث فى معانى المادة وما وراءها واتصل بحقيقة نفسه . بل لأنه عرف كيف يعلل التعاليل ويؤول التآويل فغدت الارض تحمل من هؤلاء الفلاسفة فوق ما تحمل من بيوت الناس وكلهم « فيلسوف » أى كلهم « جاهل » .

وان الانسان لا يبلغ الى السعادة إلا من طريق الشقاء فاذا شارف على آخره انكفأ الى طريق الشقاء لانه لا يعرف أنه لا يبلغ اليها أبداً وانها « تمثال » متوهم من تماثيل الدنيا لا يزال يحسبه «خلق» حى ولا يزال يدور كما تدور الارض حول محورها لا يعرف مبتدأ يبتدئ اليه منه ولا منتهى ينتهى اليه منه لانه يدور فى دائرة كبيرة كدار الشمس .

وما زلت أطلب السعادة طلب الفتاة لها وهى لا تطلبها إلا فى

أمرين فى الحب والزواج فاذا أحببت تزوجت وحسبت انى بلغت اليها وجدت نفسى مسوقة الى طريق آخر من طرق الشقاء وانى لم أبلغ منها بعض ما كنت بلغت منه اليها .

ولم يكن حبى بالحب الحين الفاسد فيكون ما أنا بالغته اليه من هونه وفساده . ولا أن السعادة لا تأتى من حيث يظن الناس انها تكون فأكون اخطأت مثلما أخطأ الناس أن ظننت انها تكون حيث ظنوا . ولا لأنى ضللت طريقها أو لم أحسن اختياره اليها وان هناك طريقاً آخر واحداً يجب علىّ أن أجتازه ؟ ؟ ؟ ولكن لانها ليست « موجودة » فى الحياة . ولانها لا أثر لها .

واذا وجدت امرأ من الناس لا يفجع فى كريهة ولا يتأسّى من سوءة ولا يتعب من مجهدة ولا يجهد فى حاجة ولا يميل الى شر ولا يعرف حسيكة ولا يحمل ضغينة ولا يتأفف ولا يتضجر ولا يطمع ولا يستزيد ولا يتصنع . . . . ووجدته طلقاً متبسطا لا يفهم من امور الحياة ما تفهم ولا يعرف من أحوالها ما تعرف أو انه يفهم منها غير ما تفهم يعرف غير ما تعرف فيتبسم للاساءة ويستخف بالمكروه ولا يتهيج لامر يدعو الى الابتهاج ولا يسر من أمر يدعو اليه السرور كأنه لا يسوؤه شىء ولا يلذ له شىء . أو كانه قانع بكل شىء . وهو مع ذلك لا أحمقاً ولا مجنوناً ولا ناقما ولا مستهتراً

.. « فهذا هو السعيد » وهذا هو « المستحيل » .

***

وما كان زواجى بالزواج المخجل المعيب فيكون تكتمى له واخفائى اياه مخافة احتقار أو فضيحة . وانما فان سنة الحياة ان تختار لها انقضاء بين تدفع الناس وتجاذبهم واستئكالهم وعلى قنطرة من الغرور والزيغ والرياء وهي معانى ثلاثه ما خلق الله أقبح منها إلا أسماءها ولا اجتمعت فى انسان إلا كان اقبح الناس لان منشأها من النفس والقلب والضمير . وانا نرى هذه الامور جميعاً على غير حقيقتها التى وضعت بها وقليل من يرى منها أمثلة صادقة ونماذج صحيحة . فكان لذلك ان نجد اسباباً معقولة نرتاح اليها ونقتنع بها ابقاء على مظهر الحياة وحفظا لمعناها فتكون من هذه الاوهام صوراً شتى من صور الحقائق .

وكان ان يكون أبى من هؤلاء الناس المستكبرين الذين يحسبون ان الله لما خلق العالم خلقهم فى الارض أربابها وأسيادها أو انهم خلقوا من غير ما خلق الناس جميعا . أو كأنما خلق الناس من طين الارض وخلقوا من طين السماء اذا كانوا مثل خلق الناس (١) ولم يخلقوا من شعاع القمر وضياء النجوم . أو ان « أمّ » الناس حملتهم فى

---

(١) اشارة الى الطين

غير ما حملوا وولدتهم من غير ما ولدوا وأرضعتهم من اثداء غير هذه الاثداء بقية من بقايا الآلهة والفراعنة المتألهين فى عصر من عصور الظلام والاستبداد والا فهم لا يزالون يدينون لتلك العهود ولكنهم يكتفون بالذكرى والتشبه فحسب لانهم لا يجدون الآن من يستعبدون ويتعنتون به . . . . وهو وهم « مطلق » متشبعة به أرؤسهم ولكنه لا يعدو انفسهم قط ولا أدرى ما أساغ لهم مثل التكبر والصلف اذا علموا فقط انهم سيرقدون رقدة « الفقير » ويحاسبون حسابه .

على ان هذه العصور قد تداعت ودرست فى الظلام كما نشأت فى الظلام فاندثرت كما يندثر كل شىء يقوم على الظلم لانه يقوم على قف (١) من الرمال لا يزال تأكل فيه الرياح . . . فانظر أنت اذا وهى « الاساس » ماذا يبقى من « البناء » .

وأبى لا يرضى قط ان يهوّن من عظمته ويقلل من مكانته ولا ان يلين لمن هو أقل منه قيمة وشأنا عظم هذا القليل أو لم يعظم وكبر أو لم يكبر ما دام لم يكن من لدّاته وأترابه فكيف ساغ لى أن أظن انه يرضى ان ينتسب اليه رجل لا يعرف قيمته من النبالة ولا كيف يوازن بينها وبين نبالة قومه وعنده ان من لم يكن من قومه فهو حقير

---

(١) القف ما ارتفع من الارض وغلظ والمراد انه مهما كان البناء على مثل هذا الاساس من الرمل فانه لابد متآكل ومنهار .

لا ينظر اليه نظراً كاملا ومن لم يكن من دينه ومذهبه فهو كافر وملحد. وقد جمع محمد من هذه الامور جميعها أى انه فى رأى أبى .. حقير . وكافر . وملحد .

على انه ان كان عنانى شىء من الامر فقد عنانى جزعى من الصلف والغرور وألمى من الحياة . فدعنى لم أبلغ من زواجى السعادة التى كنت أريد الا انى تزوجت وغدا من شانى ان أهتم لمثل هذا الزواج وان أتكلف فيه كل مقتضياته وهو ما لا قبل لى به وما أنا مكرهة على اجتنابه . فان كنت لا أحقد على فقدى السعادة اليه فانى لا بد حاقدة على ما يضطرنى الى تمثيل دورين مخطرين من أدوار الحياة فى صورة واحدة من صور المرأة . الا أن حقدى لا يعدو نفسى . فلا أزال ألومها وأنهرها ولا أزال أبغض العالم وأمقته لانه مظهر من مظاهر الشر ومعرض من معارض النقيصة ولا أحسب ان كان فيه شىء من الهناء الا انه مثار فى عواصف الشقاء .. ولكنى مع كل ذلك قانعة أو قانعة بالرغم منى لانه لم يبق لى الا القناعة أو لم يبق لى الا الايمان .

***

ولئن كنت أخطأت او أثمت فيما فعلت فقد كفّرت عن خطئى واثمى بما تحملت من الشقاء صنوفه وألوانه أحق ما يغسل نفسى وينتزع منها نفساً نقية طاهرة . الا ان لا الألم ولا الشقاء

ولا العذاب ولا ما قسيت ولا ما لا أزال أقاسى يرتضى بعضه بعض هـذا الشر من بعض هذه الحياة . ولا أحسب الا انى مقضية هماً وأسى وانى متحملة ما شاء الله أن أتحمل . والا ان ابتسامة من محمد تنسينى ما أشقى من أجله والا ان هناك « طفلا » لا أدرى ان كان يناله من الشقاء ما لا احب ان يكون . أما أنا فانى صابرة متحملة .. أما هو فلا ادرى .. وأوشك ان يرى ضوء الدنيا .

***

واحتلت على أبى ان أذهب لزيارة صـديقة لى فى ضواحى المنصورة واحتال على أن يرافقنى أخى . واحتال آدم أن تدعو أخى صديقة لنا حينما يكتب اليها وعند ما أوشك ان ألد .

المذكرة التاسعة

لئن كان شىء أفضل من الحياة فالموت الذى يخشاه الناس ولا أدرى لماذا يخشى الناس الموت الا ان لا يزالوا يتعلقون بالحياة لانهم يعرفونها على ما بها من خير وشر ويجهلون ما بعد الموت . وان هذا الجهل ينزع بهم الى مخافته وكراهته . وان شقاء الحياة وآلامها سواء من طريق الشر أو فى سبيل السعادة أولى بازدرائها ومقتها . الا أن يقود الأمل بالناس اليها وهو سبب حبهم لها وتعلقهم بها

أما انا فقد فقدت الامل كله . الامل فى الراحة والهناء . ثم ..

فماذا يدعونى الى حب الحياة .

وأذا كان الناس يعجبون ان تكون فتاة صغيرة جميلة على ما لها من ثروة وجاه شقية فهم لا يفهمون ان الغنى لا يحول دون الشقاء ولا يكون دائما سبباً فى الهناء . وقد يكون الشقاء أو تأتى السعادة من وجوه لا علاقة لها بالغنى أبداً . ولا يعلمون ان المال والجاه ونعيم الحياة وملاذها ومظاهرها لا تؤثر ابداً فى معنى الحياة ومعنى الحياة عندى الشقاء والأحزان . وانه لا فرق بين الفقير والغنى أى ان الغنى لا يكون سعيداً لانه غنى ولا يكون الفقير شقياً لأنه فقير بل فلربما كان الغنى سبباً عن أسباب الشقاء وكان الفقر سبباً من اسباب الهناء . فأما اذا شقى الفقير فشقاؤه من أجل عيشه فحسب وأما اذا شقى الغنى فشقاؤه من ماله وجاهه وأمله : أمور ثلاثة .

ووددت ان أكون فقيرة من عامة الشعب لا تقيدنى قيود من الواجبات والعادات ولا تحول بينى وبين الفطرة والسذاجة حوائل من الصلف والكبرياء . فلئن كنت فقد سعدت بزواجى وهنئت بولدى .

أراهم يصفون من الشقاء صنوفه وألوانه ويمثلون له صوراً وأمثله وهم لو علموا شيئاً من امرى لقالوا هذا هو الشقاء فى صورة امرأة.

أنا لا آكل لأن الأكل يقوم عليه أودى أو للذة فيه ولا

أضحك وابتسم لرغبة فى الضحك والابتسام ولا أجادل حباً فى المناقشة والاقناع ولا أتكلم ولا أسر ولا أنام ولا . ولا . رغبة فى أى شيء أو حباً فى اى شيء أو طلباً لأى.... بل أفعل لانه يجب علىّ ان أفعل . وكلها مظاهر كذابه أغريت عليها نفسى .

ثم ولدت طفلا جميلا :

ليهنك الله يا بنى قدر ما شقيت أمك ولقد شقيت طويلا فليهنك كثيراً . فما كان أولى لك ان تنشأ بين قلبى وأعينى وتترعرع بين أضلعى وأذرعى وتحوطك من نفسى أمثلة من عطف الأمومة وحبها من ان تقوم بين أحضان امرأة غريبة لا تزال تظنها أمك وأمك لا تزال تتحرق تلهفاً اليك .

ولد لا أم له . وأم لا ولد لها ... تناقض فى الالفاظ والمعانى . ولو كان فى عهد غير هذا العهد لكان قضية من قضايا المنطق يختلف عليها والفلاسفة على انها سهلة التعبير سهلة الفهم . وهكذا فان قضايا المنطق جميعاً سهلة التعبير . . . الا انها ليست سهلة الفهم . وهذه الغرابة منها . من غرابة هذه الحياة .

آه . ما اشد تشوقى اليك يا ولدى وما أقلنى تمكينا . لقد أسماك محمد خالدا يا بنى . ولا أعرف ان كانت التسمية اشارة الى الحب « الخالد » فى قلوبنا . او الحزن « الخالد » فى انفسنا . فاشترك « خالد » فى التعبيرين الا ان أيه تباين بين المعنيان فالتزم كل معنى

بهما طرفا من طرفي قضيب طويل وهـذا القضيب هو اللفظ . او الكلمة . او المعنى . او « خالد » ولا اعرف . الا انك « انت » و « هو » و « أنا » احوج الى هذه التسمية .

وغفر الله لك يا والدي ذنبك الىّ :

هذه هي الجريمة « الصامتة » التي لا يعاقب عليها احد أحداً لانه لم يدفع بها احد احداً ..

« وهو » لم يشعر بها لانه لا يعلم عنها شيئا ولأنى لم أخبره بشيء منها ولأن اخبرته لساءت خالى على سوئها .

« وأنا » لا أتأبى ان اقول ان ابى قد جنى على كما ان كثيراً من الآباء يجنون على ابنائهم . وهم لا يشعرون بالجناية لانهم « يعتقدون » او « يحسبون » انهم لا يفعلون الا « الحق » اوما يسمونه الحق . وان آراءهم هى الحق لا محاولة فيه ولا ريب .لانهم حاولوا الامور وعالجوها وعرفوا منهـا ما لا يعرف ابناؤهم او ما لا يمكن ان يعرفوا ...

وقد يكون اعتقادهم وابناؤهم صحيحا . فأما اختلاف الرأيين مع التزام صحة المعتقدتين فلا يرتضونه قط. ومن هنا منبعث الجريمة التي لا يشعرون بها او « الجريمة الصامتة »

واما الغرض فان الجرائم يعاقب عليها القانون ولكن هناك جرائم لا يعاقب عليها مع منافاته لهـذا الغرض او بمعنى آخر ان

القانون لا يعدها فى نظره « اذا كان للقانون نظر » « جرائم » لانه لا يحاول اعتبارها أو لا يمكن اعتبارها وهى أشد من جرائمه خطورة وخيفة وربما كانت باعثة عليها أو دافعة اليها ثم تمثل رجلا ثرياً أمسك عن ولده وأقل عليه ماله وهو فى مس الحاجة اليه وقد تكون ليدفع عنه ديناً أو يحفظ كرامة لأبيه وله فلما لم يتمكن اضطره الاقلال والامساك واضطره الحرج والضيق لأن يأثم فأثم وفعل « جريمة » القانون فاذا فعل فلا يعاقب القانون إلا الولد على الجريمة والجريمة دفعه ابوه اليها من جهة أخرى فان لم يكن من هذه الجهة « فاعلا » « فشريكا » فاذا عرف هذه النهاية خشى وتحذر منها فعرف موطن الضعف من نفسه وتربيته ولده وأنشأه انشاءاً صالحاً ونشأ الولد نشؤاً قويماً .

وأما دفع الرجل الولد من غير ما مشيئة أو ارادة فانه لم يدفع أيضاً أى لم يدفع بها جهاره واقناعاً ولم يدفع دفع الرجل الرجل الى الجريمة ما نص عليه القانون .

ثم ان الاغرب فى هذا ان يحاول الأب بعد ذلك كله ان يلم الأمر فيرجو . ويترضى . . . ومتى ؟

والجرائم فى القانون « القتل » و « السرقة » وكل ما عداهما مما يتفرع عنهما أو ما يتصل بهما فلماذا لا يعاقب القانون عليها

جميعاً . وأما القتل فأشدها خطراً . والقانون لا يعاقب عليه... دائر أن لا أريد أن أبحث الامر من هذه الوجهة البحث الذى يحتاجه وانما أشير الى القائد الضال فليس فى القانون ما ينص على عقابه اذا أفنى جيشه فى غرض من أغراضه وكان غيرشريف وكثير مما يضم « القائد» و « الجيش » ويتلون فيه « السوس » و « السياسة » .

ولا يمكن ان يملك القانون كل شىء من أمور الحياة لانه نبت المدنية فيها قد وضعه أناس غير منزهين ولا معصومين كما قام بالمدنية أناس أشباههم ممن تجب عليهم سنة الحياة.

فأما وضع القانون ومقام المدنية فثبت جميعه على العقل وهو مظهر من مظاهر الحياة أقرب الى التلون والمخادعة وقابل للتفضيل. أى ان جميع عقول الناس لا يمكن ان تتفق على عقيدة واحدة وان العقل ليس صفة ثابتة ومتى كان كذلك فالقانون والمدنية كذلك ايضاً ـ ولا يمكن ان يضع أهل الارض « قانونا » لأهل الأرض ثم يرتجون ان يكون كاملا ونزيهاً وجميعهم لهم نفوس فجميعهم مذنبون وليس فى العالم من يفهم كيف ان رجلا مذنب يضع قانوناً لرجل مذنب . الا ان يكون القانون استثنى « وضّاعه » و « منفذيه » وما تقوم القوانين على الاستثناءات « والمحسوبية » لانها (١) تقوم

---

(١) أى القوانين

على العدل وأما ان يكون العدل مقام القانون فالعدل لا يكون قط في اهل الارض لانه ليس من الارض

تشردت أفكاري : . .

ماذا كان يرضيني ان أعيش مع محمد عيشة غير شريفة وأما ليس دفع الجريمة أن أبني عليه . لقد فعلت فماذا بعد ذلك : ان أكون دائمة الحسرة والحيرة مضطربة الضمير والنفس . ما أنا إمرأة أكلف عمل المرأة ولا فتاة أقنع بما اليها ولى ولد يحجش ويدرج ويترعرع ويينع في حجر ظئر يدعوها أمه ويعتقد انها « هى » فيقوم وهو لا يعرف من القبلة والضمّة والابتسامة والحنو والعطف والأمّى الا ما تأتيه به هذه الأم الكاذبة . وهما أمثلة من الحقيقة يعتبرها اعتبارها ويشيد عليها أى انه لا يعرف من أمور الحياة الا أشباهاً وأمثلة . فيقوم مقاماً ضعيفاً وينشأ نشواً مختلا ويدفع الى معترك الحياة ومهتاجيا على بناء ناقص وحقيقة مذهوبة فلا يمكن له أن يدور الا نصف الدائرة ولا ان يرسم الا عنق الاسد ويعيش أمد حياته مسكيناً شقياً .

مسكين أنت يا بنى . ومسكينة أمك .

هذه هى الدنيا التى اليها يقتادك منها صوت شجي عذب فلا يزال يجتذبك ويستميلك ولا تزال مسحوراً بعذوبته مفتوناً « بذاته »

حتى اذا أهلكك الهوى وقتلك وشاءت ان ترق لك فأسفرت عن وجهها فاذا هى إمرأة عجوز

المذكرة العاشرة

هذه هي الحياة يا بنى وليس فى الأرض من لم تأله هذه الحياة إلا ان وجوه الألم تختلف بين الناس فلا يشعر بعضهم بما يألم منه بعض آخر لانه لا يألم مما يألم منه . ومن هنا منشأ الحسد والبغضاء المنبعثة به نفوسهم وقلوبهم لأنهم لا يعلمون ان آلام الحياة موزعة بين الناس جميعاً . وكان كيما تتلاشى هذه الصفات المرذولة من نفوس الناس وتمنى ان يكون احد أمرين :

فان تزول جميع الفوارق بين الناس وتستوى طبقاتهم فلا يكون ثمت شعوب وأمم وملوك ورعايا وجند وقواد وموالى وأسياد . أو ان يرضى الناس بما يصيبهم من خير وشر

فأما الأمر الاول فلاباحة : وهو ما لا تستقيم به سنة الحياة ولا تحتمله طبيعة العالم وفيه اضطرابه وانتقاضه وإضاعة لمجهود العامل وقيد لعلم العالم واستباحة للجرائم واستحلال الآثام وان يغترق قوم كسالى قعود فى ثمار قوم مجتهدين مجهودين وان يتتاع الجاهل بجهله علم العالم وان يرشد الأعمى الناظر وان يدفع الهيابة الرعديد الصمة العنيد . وهو أولى بالاصوص والقتلة والاشرار والمجرمين .

أما الامر الثانى فالايمان واليقين . فأما الايمان فبقوة الله وجبروته . وأما اليقين فبأرادته .

وانك لترى فى الناس من همة جمع المال واكثاره والحرص عليه حتى انه ليبيعك أصبعاً من أصابع يده أو سناً من أسنانه لو ابتعته اياه وحتى ليقيم من بعضهم الرجل على الطوى ويتضور من الجوع وتتلوى به أحشاؤه ليجمع من ثمن طعامه درهماً يكتنزه على ما لديه كأنما يساوم بها الدهر أو يجمعها رشوة لملائكة القبر ثم يقول لك اذا سألته عن هزاله وخوره وما ضمر من جسمه وما تقفع « نحن قوم لا نأكل الا اذا جعنا واذا أكلنا لا نشبع » .

وهم على ما يلقون من المال من الألم ومن أجله فلا يزالون يحرصون عليه وعلى طلبه وربما بلغ ببعضهم اغرامه به جمعه اليه من أى طريق شرفت هذه الطريق أو لم تشرف وربما تدرج منها من غير ما يدرى الى طريق قبيح من طرق الاثم

والحب يا بنى أصدق شعور القلب وأصدق الحب حب الله وما عداه فضعف ووهم وسبيله (١) الى قلب الرجل الجمال. والجمال توق القلب الى ميول النفس فأما معناه فرائع خلاب ولكنه كثيراً ما يأتى بالألم صاحبه وملتمسه فلا يغرنك من الحياة ابتسامة رائعة

(١) أى سبيل الحب

تتمرجح بين شفاهها وهدأة رقيقة تتاوج بها أعطافها فان من الابتسام ابتسامة التشقى ومن الهدوء هدأة تعقبها العاصفة

ولا تجزع من أمر من أمور الحياة فن الجزع كالخوف يؤثر فى النفس تأثيراً كتأثير الألم الذى جزعت أو خفت منه فيعطى له قوة أخرى فوق قوته ولكنك ان فعلت اعتدت صروفها فأفقدتها قوة التأثير أو أقللت منها . واعتمدت على الله فى كل شىء واعلم انه القابض على روحك ونفسك المتصرف فيهما وانه ليس لك عليهما أى سلطان .

هذه عبر ودروس من الحياة أوحى اليك بها بين دفتى هذه الاوراق لتعلم منها ما لا تستطيع هذه المرأة التى تعيش فى أحضانها ان تعلماك . وعلم الله ان كانت ستنتهى اليك وان كنت ستنتهى الىّ .

الجريمة

ثم مرضت فرانسليتا حتى شارفت الموت وتناهبتها حمى مليلة أردمت عليها أشهراً وجف عودها وذبل نضرها ولم يبق بها باقية من جمالها وينعها الا عينان داعجتان تشعان ببريق من الأسى . ثم . فلم تعد تملك أمراً من أمور نفسها ولم تذكر شأنا من شئون

حضرها وماضيها إلا اسمان كانت تتردد بهما شفتاها وتهجس بهما دائماً فى نومها وهما : خالد . ومحمد .

فلما أبلت أو كادت رأت الفونس من نافذتها ذات يوم يسار والدها فى الحديقة ولم تكن قد علمت بمجيئه فرابها أمره وأحست فى نفسها خيفة منه ودخل فى روعها انهما يتساران فى شأنها فى أمر تكرهه . ثم ما لبث ان جاءآ اليها فى غرفتها فحياها الفونس متأدباً متلطفاً وقال لها أبوها :

هذا الفونس يا فرانسليتا قد خطبك الىّ وأتم أمره معى ولم يبق إلا القليل من رضائك .

ولم يتم قوله حتى تذبلت أعينها وتضاءلت انفاسها وتقبّض وجهها واذا رعشة شديدة تهتصر جسمها اهتصاراً ثم تماسكت قليلا وأجابته : ان سأنظر فى الامر يا ابتاه .

قال آدم :

وناداتنى فذهبت اليها فوجدتها تبكى أشد ما تبكى إمرأة ثكلى وتلطم خديها وتقطع شعورها فى حالة محزنة غير هادئة فاستشفنتها الامر وجعلت أحايلها واحتال عليها حتى هدأت وتبسطت وبثتنى همومها وذات نفسها . وقالت لى بعد ذلك : انى أخاف على محمد الفونس فانه يحمل له من الموجدة والحقد بين حناياه شيئاً كثيراً

ولا بد لى ان أعلمه بمجيئه وأحذره وأحدثه بخبر والدى وأستطلعه رأيه فيه .

فاذا انقضى شطر من الليل الهادى وهدأت أعين أهل الدار ولم تبق بهحركة ولا نأمة ذهبنا الى مقام أبيك يا ولدى فطرقت بابه وما زلنا نديم الطرق ويدوم بنا السكون حتى ملّت أمك وملت

وكانت تضطرب فى هذه الأثناء وتنتفض وقد تملك الخوف نفسها وتساورها الغضب وجعلت تترنح بين يدى كالشاربة الثملة لا تملك من نفسها قياداً ولا هواداً . . .

فانى لأشاورها فى العود وأزينه لها واتواعدها الى الغداة اذ انفتح الباب فجأة وظهر عليه وجه مربد مكفهر ويدان ناحلتان مختضبتان بالدماء . واذا النفوس جامد كالتمثال زائغ الاعين متقطع الانفاس فصرخت أمك اذ رأته صرخة رائعة واندفعت اليه كاللبؤة المهتاجة فنشبت فى عنقه أظفارها ودفعته فى جوف الغرفة الظلماء دفعاً عنيفاً وجعل يدافعها ويقاومها ويحاول الافلات منها فى حال اشبه من الذهول والخوف والاضطراب بحالها . وكان أبوك ملقى على ارض الغرفة فى غدير من دمائه مما لا يزال يتفجر من فمه وأنفه وطعنات فى ظهره والى جواره « خنجر » صغير يلتمع فى الدجنّة التماعاً . وكانت الجريمة مصورة فى مثال من أقصى الامثلة غاية مما تصل اليه البهم الضارية فوقفت فى مكانى كالمصعوق لا أجرأ على الحركة من الرعب

ولا اقدر عليها اذا جرؤت كان الفونس وأمك لا يزالان يشتجران حتى تغلب عليها وأفلت من أيديها وألقى بها على الجثة الهامدة الضارجة بالدماء وادار وجهه وولى مما أبيح له الفرار . ورأيته يتحدر على الدرج الكثير بسرعة كبيرة ثم غاب عن ناظرى .

وكان قد تخاذلت ساقاى وجثيت على ركبتى عند الجثتين الهامدتين الملقيتين موهناً باكياً . وقد كنت فى حال أشبه بحال المجنون فلا ترو ولا تفكير كأنما قد فقدت قوة الارادة وقوة العقل والايحاء . فتقبضت أصابعى بعنف وقوة على الخنجر الملقى وانطلقت خلف الفونس قافزاً وثاباً حتى اذا بلغته عند الباب طعنته فى ظهره طعنات كثيرة فوقع على الارض لا نبس ولا حراك . ووقفت فى جواره فى غثيان وذهول .

ثم سمعت ضحكة طويلة متهدجة مروعة ورأيت أمك تجرى فى الطريق جرى المرأة الضليلة على غير هدى . وكان هادئاً مقفراً لا يكاد يسمع فيه الا صدى حركاتها وضحكها : وكانت شاحبة الوجه غائرة الأعين مفقود ضياؤها مذهوب بعقلها .. مجنونة

***

علم الناس بعد ذلك الامر ولكنهم لم يعلموا شيئاً من الحقيقة فانها ظلت يطويها قلبان فقدها احدهما وتناساها الثانى وقد مضى عليها الى الآن نيف وعشرون عاماً .

وبقى طفل صغير يتربى فى حجر عجوز درداء فى مهاد رث لا يعلم عنه أحد فى الحياة انه حفيد « الكونت . . . » وانه من أكبر ثراة أهل مصر ولا يهم أمره أحداً فى العالم الا خادم أقسم أن يرعاه.

أما الخادم فقد بر بقسمه حتى بلغ الطفل مبلغ الرجال وكان كل ما يملك قدراً قليلا من المال عهدت به اليه أمه .

أما أمه فقد ظلت مجنونة ثمانية عشر عاماً كاملة لم تحى منها يوماً واحداً فى هذه الحياة ثم شفيت من جنونها ورجع اليها عقلها ولكنها مرضت مرضاً شديداً لم يزل بها يمرمرها ويصهرها حتى انتزع الموت روحها منها وهى تردد اسم ولدها . وكان قد قضى أبوها فى هذه الاثناء حسرة وهما بعد ان اعتكف العالم واعتزله وترك نفسه منالا لهمومه وتشتيت نفسه ووخز ضميره فتولى ابنته أحد خلانه ورعاها لان أخاها كان قد هاجر الى « أمريكا » قبيل موت أبيه ليستكشف فى « كليفورنيا » منابع الزيت . ولا يعرف أحد ان كان لا يزال حياً إلا انه لما مات أبوه أرسلوا اليه فى نواح كثيرة ولم يعثروا عليه

الرواية

نحن الآن فى غرفة ضيقة مظلمة تطل على حديقة جميلة متناوحة الارجاء ينبعث من عبيرها نسيم معتبق ينبعث من مثل عبير الآس

والرياحين المنشأة فى زواياها دوالى وضعها أشباحا متقاربة فى قصر منيف متطاول الأكناف . ولكنها رغم ضيقها وظلامها كانت كما يكون كل شىء فى مثل هذه القصور روعة من روعات الجمال الذى ينسكب فيما بين القلوب والأرواح لو أنها لم تعلقه غبرة من غبار الدنس ولم تمسه ريبة من الريب لكان مثالا من أمثلة الفضيلة التى يتساءل عنها الناس اليوم . . . وبين يديها فتاة بلغت من الحسن مبلغاً يختطف اليه الانظار وتتوائب عليه القلوب ويتفجر السحر من عينها تفجر الينابيع فتسبح فى فورانه النفوس والعواطف كالعاصفة الشديدة تسبح فى هبوبها الأوراق ليس ثمت مقابلة بين أخضرها وجافها وكلها ورقة مضطربة سابحة لا تملك من نفسها قوداً ولا دفعاً لانها بين قوة غاشمة متعسفة مثل قوة السحر فى عين المرأة . . . وفتى جميل الطلعة رشيق الحركة ممشوق القوام كانما اذ تراه ثم تراه معقوص الشعر ممسوح الشارب مختضب الوجنات ترى فتاة كاعباً هيفاء تتلهفها القلوب وتستبيحها العيون

أما الفتاة فهى . . وأما الفتى ففؤاد

وكان قد مضى عليهما حين من الدهر يتلاقيان فيه فى هذه الغرفة خيفة واستتاراً حيث يلهوان ويأتيان ما شاء الشر ان يفعلا . وقد شاءت لى أن تعود اليه وتتلوث فى أحضانه وتنتضى من عليها بقية اسمالها الطاهرة وتمزق بأظفارها آخر قطعة متماسكة من ثوبها الخلق .

هكذا شاءت لى ! . . ومى لم تشأ إلا ما يشاء كثيرات من مثيلاتها اذا أحببن وفشلن فى حبهن أو أوذين فيه .. والحب لديهن ليس حب العواطف وتلوح الأرواح فهن لا يعرفنه قط وانما الحب الجامد مثله مثل الحب الذى تراه فى قيعان التمثيل وعلى أستار « الصور » وهن لا يتكلفن منه إلا لفظين : آه . وأحب . . . وإلا حركتين : ضمة ولثمة . إلا ان هذه « الآه » و « والحب » و « الضمة » و « اللثمة » مثلها من مثلها مثل الخباز يصنع الفطير ويأكل الخبز ...

ويتنقلن فى حبهن تنقل النحل عند الفاضلة بين فاضل وأفضل فترى كان للواحدة منهن ثلاث أحباب ولها حبيب جميل وسيكون لها كثير كالفاهر والمومس والخليعة حين تذاكر العشاق والرفقاء .

وهن مثال من جمود الشعور وصلابة القلوب . إلا انهن نسوة . . فما اجتراء القائل انهن اسن منبعث الشعور ومهواه ومقام الحب ومستقره !

وقد كانت تهجس فى هواجس الحب الكاذب وتختبط فى ظلمائه اختباط الأعشى وتهادى بين أعين النظار وتماوج بين نظرات الاعجاب ثم هى ترى رجلا يحتقرها وينبوها حين تجثو أمامه وتضرع اليه وكانت ضالة عنه شاردة عن طريقه . . وغيره

يتلمس منها لفظاً واحداً ويرجو ابتسامة ضئيلة فهى تمقته الآن وتجتويه . والمرأة اذا مقتت واجتوت فقد غدت منبعث الشر ومقترف الجريمة . .

قالت مى . متى ؟

قال فؤاد هذا المساء

***

مثل من أمثلة الشر المتدفق فى النفوس السيئة يتمشى فى صمت الليل وحلكه وهدأة الاثم ورجفته وذبول الطبيعة وغمضها الى حيث ترتسم آثاره القاسية السوداء على صفحة عريضة بيضاء من نقاء الزهر وتتلوث بأقذاره ووحوله غلالة رقيقه طاهرة طهارة الضمير .

وكانت تتمزق أمواج الليل على شاطئيه وتنسكب فيما بين آفاقه وأغواره وتمتد تجعداتها الى السماء كأنها الجبال الشم السوداء تحملها رؤوسها وقممها . وقد رقد الناس فى طرقه وأحضانه واختفوا فى سواده ووحشته وغابت المدينة فى الليجّ المضطربة من نسيجه المتبدل ودفع بقطاتها من قارات الاحياء الى قرى الاموات ...

ولم يبق الا ثلاثة لم تطلهم ذيوله وأهدابه ولم تتلهم مضاربه وأمواجه :

بائس سامته الحياة خسفها وذلها وطوحت به مما يطوح قضاؤها

وقدرها وتحدرت روحه بين ذوب نفسه وألم قلبه والقى من جموده «١» وهدأته مناغاً لزفيره وأدمعه وشكاته وتوجعه

وعاشق يبيح فى صمته وغموضه تحرق الحب ولوعته وفيض الغرام وشدته فيمضيه بين تسامر ونجاء وتأرق وبكاء وأحلام شتيتة وآمال كثيرة وأفئدة خفاقة وأدمع رقراقة

وشقى يتناهب نفسه الشر فيفترص من سواده وحلوكته فرصاً يهيئ فيها نقمه ويقذف حممه

فمن هذا الأخير شئت ان اقول انه ذهب اثنان يسترقان اقدامهما ويستخفيان نفسيهما ويتسللان فى الظلام ويتسكعان فى الطريق المقفرة حتى بلغا شرفة عالية تطل على حديقة صغيرة يذكر القراء انها شرفة مى وحديقتها فتسورها احدهما وغاب فيها ثم عاد يحمل على يديه طفلة صغيرة لم تكتمل سنينها ثلاثة فتلقاها منه وغابا فى جوف الليل... وما زالا سائرين مستخفيين فى طريق طويل متشعب متعرج حتى اذا كادا ينتهيان منه وجدا عند شجرة ضخمة جوادين ممسكهما رجل بمقوديهما فامتطياهما وانطلقا بين المزارع والحقول . فلما ان اشرق النهار اشرفا على قرية صغيرة فتغلغلا بين بيوتها الى بيت حقير قابلا فى فنائه امرأة قروية مسنة تعمت «٢»

---

(١) أى جمود الليل

(٢) تلف الصوف على أصبعها وتهيئه للغزل

الصوف وتغزله فتركا الطفلة عندها وعدا . فلما بلغا بعيداً عن القرية وقفا هنيهة فتحادثا قليلا واعطى احد الرجلين الرجل الآخر مالا وفيراً ثم حيادو مضى . اما الثانى فعاد متلألئ الوجه ضاحك الاسنان ينشد اناشيد قصيرة مهملة فلما بلغ الدار دخلها وهو يقول لأمه : لقد اثرينا يا اماه من غير مجهدة ولا عناء فلا تعودى الى ثرثرتك وتعنيفك ولا اعود الى محاديثك وفؤوسك .

اما الرجل فصعلوك من خشاش اهل القرية يأكل من غزل امه وفلح الأرض وهو غبى حقير لم تسم به همته ولم يعصمه قلبه . وهو وقح جبان سفى الشر مذ كان طفلا يحبو ويستعير ولكنه يكن يشعر به لانه لم يكن يبينه شيء فلما اراد الرجل ان يختطف الفتاة وجد من أمه وخسته معيناً للجريمة ومعيناً عليها ولكنه كان طماعاً ومستزيداً

وكانت الطفلة ... : المفقودة او الثائرة اذ تشاء الآن وكان الرجل الآخر ... فؤاد

الجارية

تقتصر الطريق الآن فقد شق علينا الاسهاب والاطالة وقد افرغنا مواضيع الرواية فى الفصول الاولى ولم يبق الا واحداً أتمثل ذلته وضعته وحقارته فى جلد املس رقيق تعقد امّة من الشعر اللين

الطويل ويتكون من عقده صورة من صور « الظلام » فى وجه ابيض تتطلع اليه القلوب المستهامة تطلعها الى مأوى الغرام ومنبعثه واعين داعجة فتاكة يتدفق منها السحر على الافئدة فتقتلها تعاويذه وجنته تقتيلا بطيئاً . والغرام يتولد حيث يكون الجمال والجمال هو الميل المتصبب من الارواح فى أعماق الانفس . وهنا وفى قوام معشوق يتمشى فيه الجمال ويتمجر منه وفى مشيد عظيم يتبرجرج فى حديقة نضيرة طويلة الابعاد كانت تتجمل فى المرآة المفقود أو الثائرة كما اسموها ونعتوها

فاذا رآها امرؤ الآن كان رآها لالتبس عليه نضرها وسمنها فى تقسفها وهزالها التباس الاشياء بالمجنون . ولما صدق ان هذه المرأة الفتانة الخلابة الجمال هى الفتاة الضارعة الناحلة التى كانت تتلوى فى الاقدار .

فخرجت فى جوار نضر متبرجات متأنقات يمشين متهالكات متأودات فى عيون الرائين وافئدة العاشقين فى طريق عريض « معروف » من طرق القاهرة حتى اذا ادركن جادّته لقيهن شابان وسيمان يمشيان الهوينا فى احتيال ورقة . وكان احدهما حدثاً جميل الوجه مفتر الثغر فأمسك بيد رفيقه وتنهد تنهدة شديدة وقال له وهو يشير الى الفتاة ...

هذه أسماء .

ماض

دعنى أتحدث اليك قليلا الآن فى إيجاز واقتضاب شيئاً عن الفتاة المفقودة أو أسماء . فى صلة تربط بين الآن والعهد الماضى وقد كنا تركناه تركا طويلا لننفخ فى روح « الرواية » نفخة نتصل بها الى معنى رشيق نأخذ منه فصلا من فصولها وصلة أخرى تربط بين الآن والعهد القريب وما تركناه الا لنستعبر ونتعظ .

ونعود الى الفتاة عند القروية العجوز تؤكلها وتغذيها من مال بعث به فؤاد حولا وأشهراً ثم قطعه قطعة واحدة فغذتها غذاء الاماء وكبرت عندها مهملة مهانة مزدراة كبر الخدم والجوارى لا تعرف إلا أن هذه العجوز أمها وأن أمها هذه قاسية عليها جداً — ليست من الأمهات ولا كالأمهات لانها تحمل بين أضلعها شفقة الأمهات.

وكانت تعاملها كما تعامل الأظآر من مثلها الأطفار « اللائى » يربينهن من مثل ما كانت تربى أسماء بالقسوة والاساءة والاعجاز والارهاق. ومثل هذا الخلق كثير لا يقصر على هذه المرأة العجوز. ومثل هذه الفتاة كثير يسمن الهون ويذقن غضاضة الذل ويسأمن من ذلك الحياة ويملنها . ولا يعرفن من مذاقها الا طعم الحنظل لانهن لا يعرفن من النبت إلا الحنظل . والمرأة التى لم تلبس من اللباس

غير « السحل » من القطن الأبيض لا تعرف «السكب» من الخز الرقيق وان عرفت اسمه فلا تعرف هيئة . ولا غير هؤلاء من يعرف اليأس ولا مثلهن من ينكر الأمل لأنهن ربين لا يعرفنه ومثلهن من الحياة مثل صورة المرآة تفعل فعل « الخلق » الحى الذى هى صورته ولكنه لا يعرف معناه (١) ولا يعرف الفعل معناه (٢) لأنها من صور الخيال لا تفهم ولا تعقل

فهربت من عندها

***

وماذا تعمل فتاة مسكينة فى السابعة من عمرها لم تعرف معنى الحياة وما هى إلا أن تظل مفقودة منها جوّالة فى طرقها . وطرقها وعرة كؤود . كثيرة الشعاب والاعقاب (٣) لا تأمن اختيارها ولا تقوى على اجتيازها . وأما فقدها فمخافة ومهلكة لها . . .

والحياة أضرب الامثال لها غاية بعيدة الاقطار مترامية الابعاد كثيرة الطرق والمنافذ والمضلات والمتائه والشعاب والرجام والادغال والآكام والدوح والحشيش ومخيفة مسبعة ومحوّاة مفزعة.. ثم ألقيت فيها الفتاة فلا تملك منها إلا التوه والضلال والقعود عن

---

(١) أى معنى الفعل

(٢) أى معنى « الخلق »

(٣) جمع عقبة

أغراضها والعي عن مستلزمها . مثل هذه الفتاة . كانت الثائرة في الحياة

ومثل الفتاة وفي سنها يلمها الشقاء وتستحلبها الفاقة وتتنكبها الأيام لان الشقاء لا يلم فيما يلم الا رمزاً من أمثالها الضالين في دوج الحياة فلا يثبتون منها على مثل لبنة ناتئة توضع عليها قدم من أقدامهم أو قومة صحيحة من قوماتهم في عصفة من عواصفها . ولا تستحل الفاقة الا الجياع والمساكين والفقراء لانها تكنّ في دورهم وتستخفي في أعشاشهم ودورهم في الرسم المخربة وأعشاشهم في المآوى القذرة والايام بينهما لا تتنكب الا من لمّه الشقاء واستحلته الفاقة فلا يهنئوها شيء الا مضغة تلوك بها أسنانها وأكلة تشرد جوعها من مثل مضغ الحشيش وأكل البهم بمدّ من يدها ومدّ من إطلاق لسانها واشباع قولها وامتاع أسلوبها فهو حسن السبك متين البناء حسن سبك الكتاب ومتانة بنائهم . ولا يفضلها الكتاب في بؤسهم وان فضلوها في حياتهم وكأنها مثل حقير من أمثلتهم الا ان كلامها حديث استرحام ومغفرة وقولهم حديث خيال وفلسفة . فيأخذها من طرقها وترددها من مثل ما أخذ الكذب والرياء وما هو يأخذ من ما أخذها فتعتاده مثل ما اعتادت غيره اعتياد شقائها وهمها وأعيائها وجهدها وقرّها ومرضها وجوعها وألمها . ثم ما زالت في طوق البؤس وأغلاله سبعة سنين أخرى تناهبتها دقائقها وثوانيها

مما تنتهب المفؤود دقائقه وتعذب الخائف ثوانيه لم تر فيما رأت شقاء أتم من شقائها وعذاباً أشد من عذابها ولم تكن تعرف الشقاء والعذاب إلا أن ترى صروحاً شماً متعاليات وحدائقاً نسقاً مترامیات وجياداً هياكل مطهمات وابراداً شربا موشاتا «١» وكواعب رتعاً قساتا وأوباشاً من الخدم والحواشي وأعناقاً من القوادم والخوافي وموالي غطارفاً صيداً تطس الارض نعالهم وتمزق الاجواء شرورهم وينثر الذهب غيهم ودعبهم نثر الصبية المرادس والمراجس «٢» صعرا أشاوس روافع الهام عوالي الأرؤس قاصفون مبتردون صائفون شاتون ثم عند هذا النعت فتاة هدت قدميها المتعبتين في مجهدة اتعاب الجوّالين في مفازة متيهة من طلب بلغة تشفي فرص الجوع وشرقه . وقد مرّ عليها يوم وليلة في هرتها « ٣ » لم تمضغ فيها ولم تدأث «٣»

وتركناها بعد المقبرة فلم نأت بها لانها لم تكن قد بلغت من الالمام بحالها مبلغ الآن

***

---

(١) رقيقه

(٢) حجارة

(٣) ثوبها الخلق

وكانت اذ نريد القول قاعدة القرفصاء تحت ظلّه من بنية خربة قعدة الحائرة المهمومة تغشاها من الحزن قدر ما توشّت بها الليالى المواضى قلقة متأملة فمرت بها إمرأة لم تفرق سن الاربعين بها سؤدة من الشباب فى صورة مؤنقة متبرجة فوقفت عندها وقفة طويلة هادئة ثم قالت لها : عمى صباحا يا ابنتى

فسمعت الفتاة صوتاً لم تعتد حياتها رقته ولم تلق فى الناس من أسمعها غنّته وهي لم تسمع من الاصوات الا نبح الكلاب الثايحة حولها ونغمات الهزء والسخر منها ثم رفعت رأسها فى فتور وحزن ورأرأت اليها قليلا وقالت لها : عمى صباحا يا سيدتى

وهنا قصف الرعد قصفاً شديداً ودلف البرق دلافا سريعاً وسالت السماء ولثّ المطر .

قالت المرأة : أين تعتصمين من المطر اذا بغتك المطر ؟

قالت الفتاة : أغذ السير الى مأوای

قالت المرأة : وأين مأواك ؟

قالت الفتاة : فى هذه البنية على هذا الربع «١»

فلما أووا الى معتصم فيها وكانت غرفة عارية الارض والجدر

---

(١) مرتفع من الارض

أطرقت الفتاة اطراقاً طويلا شابت فيه اطراقها ليلة كانت تفوت من قرص الجوع وانتفضت من المرض ورجفت من الفرّ ومر بها الشيخ اليفن العاشز على العكاز . وأطرقت المرأة . ثم رفعت رأسها وقالت :

وكيف تعشين وتأوين ؟

فرفعت رأسها وقالت : أعيش عيشة البائسة الجائعة وآوى إيواء المخلوقة المجهولة مثل ما يعيش ويأوى البؤساء والاشقياء .

قالت المرأة : ثم انك جميلة .

فسكتت الفتاة

وكانت حقاً جميلة جمالا يشرق من شفّ رقعة قذرة من الخلقة والهموم أروع فتنة فى فتاة خفره . ولكنها لم تر وجهها قط فى الماء ولا فى المرآة .

قالت المرأة : وحرام أن يذبل هذا الجمال النادر ذبول الورق ويتقوض تقوض البناء ومثله يتأود فى القصور الشاهقة القابضة على السماء ويتقلب فى النعيم والعز على الديباج والخز ... تقصف الرعد.

وأنت لو شئت أن تعيشين عيشه مرفهة وترفلين رفلة موثقة فى جمالك نضر وفى عيونك سحر وفى روائك بهر . . .

فدلف البرق

ومثلك كثيرات يخطرن الآن خطران المها فى الاعطاف

وكنّ شرودات ضمّر نحاف لم ينلن من روع الجمال بعض ما نالك ولم يختلن فى أعطافه احتيالك . . .

قالت الفتاة : ومثلى كثير

قالت المرأة : ولكنهن لم يلقين ما تلقين ولم يسغ ما يسوغ لك لهن

فصمتت الفتاة صمتاً طويلا .

***

ان المرأة الحقيرة البائسة التى اعتادت من عيشها الشقاء والذلة تفقد من نفسها الأمل لانه يفنى ويتلاشى وتجهله فيما تجهل من أمور الحياة مثل كل شىء لا يبعثه من رقدته باعث من الاحياء والنشور فيبقى كضوء القنديل الضئيل اذا لم تطل من ذبالته وتكثر من مائه وزيته تضاءل وتفانى . فاذا فاجأه أمر من الامور فعالج منه ما تعالج الاشفية من الداء رددت المفاجأة بين أضلعها مثل ترديد الأصداء وانما فى عنف وذهول لانها تكون كأنما ينشر ميت تناهبته الادهر أعجز علم عصره علم الاعصر لم تمش بها مشى النياق هميساً فن ضلت فمثلها من مثل هذه المفاجأة كثير يضل وان بقيت تتردد الفتاة فتردد المرأة وان لم ينعت التردد عنف وذهول فلأنها ليست مثلها . أو يبهرها بعثة الأمل فتنقاد عمياء اليه لانها شغفت

بهره وتختلج فى موج من شغفها يتدفع تدفع السيل اثر اعب وتكون فى ذلك كالخاطر اذا غبّ بعد القول لا يملك القول صحيحا . أما الفتاة فلا :

ان من خرق الرأى ان تعيش هـذه العيشة الحقيرة وترضاها لنفسها حياة ثقيلة دائمة من حيث تجـد حياة راضية رافهة ممهّد لها سبيلها فـلا تحتاج قط الى تسويته أو تصليحه فان كانت مما تمرد عرضها فقد مردت أعراض كثيرة فى سبيل من مثل سبيلها وغدت كالزهرة تستنشق عطرها اذا ظلت فى يدك فان القيتها فما ضارك وما أساءك .

هذا ما ترجو منه امرأة مثلى حياة من مثل ما تعرض الىّ أما أنا فأمرى ان أجتاز « هـذه الحياة » وانما من طريق غير طرق هؤء النسوة فلا ألقى الزهرة ولا أكتفى بعطرها وانمـا أعرضها على الناس وأضم فى عرضها بمـا يبقى لى الحياة الراضية الرافهة ويبقي عرضى غير ممرود ولا ممزق وانما فى سبيل أبعد من سبلهن . وماذا علىّ ان أسأت الى نفسى قليلا وأسأت الى من أساء الينا كثيراً .

قالت الفتاة :

وهل تظنينى جميلة جمالا يرتقبه أملى وأملك ويسوق غرضى وغرضك .

فقالت المرأة .

قومه منك الى « مغتسل » تغتسلين فيه وموضع تتجملين فيه ولباس من الحرير الرقيق تترجرجين فيه وتختالين ووقفة امام المرآة ثم بعد ذلك تعرفين ما عليه جمالك

***

قطعة من النور تمشى فى تأود وألم واستحياء الى البحر الثائر العريض الممتد أمامها فتندفع فيه وتستخفى بين صحفه فى جوفه ولم يبق منها أثر فى الوجود الا قطعة بقدرها من بواقى الخيال بقيت حيثما كانت تشتد ظلمة وحلوكة : هـذه هى « الفضيلة » حيث طويت وأقام على مطواها « الرذيلة » . أو هـذه « أسماء » حيث قضت على العراك الناشب بين ضميرها الحى المتأنف من الرذيلة استبقاء على الفضيلة فى هيكل من مخلوق بائس تنكبته الحياة وائتثرد الشقاء كانت لو بقيت فيه تكون مثالها الأعلى وكان يكون ضميرها مثالا من نقائه وحيائه وكان يكون منهما مثال الجمال . . . وبين نفسها التواقة الى الانتقام من هذه الحياة التى أشقتها وآلمتها فى صورة من الخلق الناعمين المرفهين الذين لم يعرفوا الشقاء ولم يبلغ أسماعهم وكانوا سبباً فى بأسائها فيكون انتقم البؤساء من الأثرياء الذين كانوا غالباً أو دائما سبباً من أسباب بؤسهم فى سبيل غريب من سبل التضحية أولى بأن يشير إلى حب الانتقام حباً كثيراً شديداً . وإشارة الى العداء المستحكم الواقع بينهما بطبيعته الكائن من حيث هما « فقير »

و « غنى » فالبغض من الفقراء للأغنياء والاحتقار من الاغنياء للفقراء . ومن هنا تقوت عندها « فكرة » الانتقام وتولد من فكرة الانتقام « فكرة » التضحية فى سبيل الانتقام . وأمست عاهر .

ولكن عاهراً تختال فى أبرادها وتتهدى فى إعطافها وتساقط عليها الأمطار من الورق (١) والنضار

منظر

فى بيت العاهر

حسبك أن أصف لك الدار وأتحدث اليك عن أهلها

فاذا كان الليل شياتاً (٢) تذوب فى تهاديله ومزقه وانحسرت عن ثلثه المثغر (٣) رقعة من رقعه فقد وقف عند الباب « مركب » فخم يقودها طرفان تيقان . وينزل من ثلمتها سيد مغضور (٤) يعسف فى برده الواسع المهفهف من برود الفرنجة وتعصم عينيه عينان من زجاج فى إطارين من ذهب جميل فى خلابة وأنق إن لم يكونا من جمال وجهه فمن جمال مظهره وروعة فينحنى له خدم كثير سود فى

---

١ ـ الفضة ٢ ـ علامات بيض في سود والمراد اذا أوشك الليل ان يقبل ـ ٣ ـ اثغرت البهيمة واثغر الطفل نبتت أسنانها أو أسنانه ويراد هنا ثلثه الاول ـ ٤ ـ كثير المال

كمى بيض تحزمها فى خصورهم حزم حمراء فيضع الرجل يده فى جيب ردائه ثم يستعيدها حفنة من نقود فضة فينثرها عليهم فى عجلة وكبر ويرقى فى درج من المرمر فى سلم عريض .

فاذا انقضى قليل يقبل شاب ناحل طويل جميل الوجه بسام الثغر أنيق اللباس يداعب بين أنامله عصا صغيرة . فيسأل أقرب الخدم اليه : من هنا ؟

فيقول الرجل : « الباشا »

فلا يكاد يرتقى فى درج قليل حتى يأتى رجل فى حلة «الشيوخ» دثار من الحرير وجبة من « الجوخ » على رأسه عمامة بيضاء عريضة الأطار يختال فى مشيه زاه بنفسه فيقول : من هنا .

فيجيب خادم : « الباشا » و « الطالب »

فاذا انقضى من الليل ثلثه الشارخ فقد تم عدد الحضور عشرة أو ثلاثة أيضاً أو ان شئت قل خمسة عشر رجلا أو ما قبله وبعده وكلهم من مثل الثلاثة « التى » ذكرت . وفيهم اسماء نقش الخضاب على وجناتها وبنانها أوراق الورد الذى تعابثه وينبعث السحر من أعين حوراء داعجة فى كحل من جفون ذابلة تعبث بالعقول عبثاً وتعيث فى القلوب عيثا وتقبل وتدبر وتميس وتخطر ونجوم معقودة على النحر ولئالئ ودر فى ثياب فضفاضة من الحرير الموشى المتوهج الالوان

(١) فأمست كأن أشعة الأضواء تساقطت جميعاً فى نقطة واحدة على لوح من البلور تنعكس فيه صورة كاعب هيفاء من كواعب الحور يشع فيما يشع من سحر أعينها ضوء ضئيل فاتر يشتد أحيانا وينطفئ فى غرفة رحبة مكسوة الجدران بجلود الوحوش ومضاءة بعناقيد من النور يتساقط على طرف من الاثاث وغل من الرياش

وكان فى أحد أركانها نضد عليه خمر جلس اليه « الباشا » ورجل لم يعرفه القارىء اسمه « سيزار » استشكل على استيقان مصدره (٢) الا أن ما يهمنى من أمره أنه كان يقول له إجابة على سؤال سبق : ربما تستطيع بعد إجهاد

قال « المسمى » الباشا : أو انت متثبت مستيقن ؟

فقال الرجل ويلثم الكأس : رأيته يهديها لؤلؤة فى مشبك من ذهب . . .

ويقول . الباشا فى قول مأكول ولثغه من أثر الخمر .

ذلك الطالب الحقير الضئيل المهزول ! ! ! طوق من اللؤلؤ ودملج من الماس وسوار .

ويقول الرجل : ثم رأيتها اليوم تحادث شاباً وسيما جميلا فى غرفة منفردين .

---

(١) هذا القول يرد في معنى اللفظ الافرنجى « جانجا » تماما

(٢) اشارة الى ان الرجل قواد

يقول الباشا ويضطرب : ثم عرفته ؟ ثم يهمس فى أذنه قليلا ويشرب جرعة من الخمر .

وكان الحضور الباقون فتيتين : على نضد آخر يلعبون لعباً من الميسر : ويجالسون جاريتين جميلتين .

قالت جارية للرجل الشيخ : لا أقل من عشرين قطعة من ذهب

وقال الشيخ : لا أملك غيرها الآن يامنيتى

وقالت الجارية : وانما ستملك يا حبيبى . . .

فيخرج الشيخ كيسه ويعطيها المال ثم يطوقها ويتلاثما . وتقول الجارية : وهذه كؤوس من الخمر .

ويقبل الساقى .

وتقبل أسماء فتسأل من الكاسب ! فيقال فلان

ثم لم يبق الا الثلاثة « التى » ذكرت أولا .

ثم تقبل المرأة التى ذكرناها فى انسياق الحديث الأول فتجلس الى « الباشا » .

ولا تزال الكؤوس تقرع والخمر يجرع .

يقول الرجل ويسيل ويترنح : الا قبلة واحدة .

فتقول المرأة : اصبر .

ثم يشيب الليل ويذهب الحضور

ثم تذهب الفتاة الى مرقدها .

القصص

فاذا طرق بعد ذلك الباب طارق فقد خرجت اليه اسماء واذا فتى جميل رقيق كنا أشرنا اليه فى معرض « الجارية » .

فتنهدت الفتاة تنهدة شديدة وقالت له لقد جئت ياحبيبى ايضاً ثم القت رأسها على صدره وطوقت عنقه ونظرت اليه باعينها الذابلة نظرة يسيل فيها قلبها .

وقالت له : ألا تقبلنى قبلة واحدة .

فقال : لا وإنما أقص عليك قصة .

قالت الفتاة : اقصص وأقص عليك قصة أخرى .

قال:

كان لى صديق غريب الأطوار ينكر كل أمر من أمور الحياة ويقول انها صور وأوهام وأمثلة وان الحياة فترة ضئيلة يجب أن يجتازها الانسان كما هى الى الخلود . وينكر فيما ينكر الحب ويقول انه ضعف فى الارادة فى وهم من أوهام الحياة ويقنعنى بجميع قوله بحجج وأدلة لا تسع النزاع والانكار . وكنت أقول انه « فيلسوف مجهول » و « فلسفة غامضة » .....

فاذا كان ذات مساء خرج وصديق فلقيا فتاة رائعة الحسن فدهشه جمالها وأذهله فوقف جامداً ساهماً .....

قالت الفتاة : كأنك تتحدث عن نفسك !

قال : بل عن صديق

فذا هو فى دهشه وذهوله واذا جواد جموح يقود مركب فصدمته وأصيب وغشى عليه فلما أفاق لقى هذه الفتاة تعنى به وتضمد جروحه . ثم لم تبال بقوله وشكره وتركته ومضت وانما فى أنفة واحتقار . . .

قالت . ثم ماذا ؟

قال . ثم دهشه جمودها واستغرب هذا التناقض من فعلها ولكن شعوراً غريباً فاجأه فلم يقو على هجره ولم يقو على تناسيها ثم لم يزل يبحث عنها حتى علم انها امرأة . . . . وامرأة عاهر .

فابتسمت الفتاة ابتسامة فاترة وقالت أكمل حديثك .

قال .

وكان قد أحبها حباً بلغ من قلبه ما لم يبلغ حب امرأة من قلب رجل فكان هذا العلم منه كالسكين الماضى القاطع احشاءه . . .

ولم يسل هذا الحب . ولم يعرفه بعد ذلك الا فى صورة فتاة رءوفة ساقطة سقطة رائعة . وانه كما ان فى كل شىء « شواذاً » ففى العهر « شاذة » فى مثال من هذه الفتاة أقوى من كل هذه الشواذ يقولون ان العاهر لا قلب لها . . .

واذا كان الحب والرحمة والاشفاق تقوم جميعاً فى القلوب فان

الظاهر لا تحفظ منها شيئاً . وهى فى مظهرها مثال من الحب . أو... مثال من الحب الكاذب فى مثال من امرأة كاذبة . فاذا شذت هذه « المرأة » فقد قام الشذوذ فى هذه « الفتاة » التى أحبها صديقى لأنها « ذات قلب » . . .

وأحب أن يقوّم من هذه المرأة الظاهر فتاة فاضلة فكان كلما زادها نصحا كلما ازدادت ضلالا وطيشا . وحار الآن هذا الصديق . . .

قالت : انى أرثى لصديقك .

قال : بلى فارثى له لانه لم يلق للفتاة غير الرثاء .

قالت الفتاة : أأقص عليك قصتى ؟

قال : افعلى

قالت :

فلم يعرف مثل هذا الصديق ان الحياة فى اثنين : رأفة ناعم . وبؤس ذليل . وان مثل هذه الحياة كانت صديقتى وعاشت عيشة منكودة فاجتوت الحياة وكرهت الرافهين وودت لو انها تنتقم منهم انتقاماً يكون « مثالا » ويهون عليها اساءتهم قومها . . ولكن افرض :

قال : لا أفرض شيئا.

قال : افرض أن يذل قومهم وتعنو جباههم وتطأ الفتاة هامهم

ويجثون عند أقدامها ويضرعون ويتمسحون ويستغفرون ويتمنون فاذا عرفت ذلك عرفت أيضا ان أموالهم مهدورة تحت أقدامها...

قل : ثم ماذا

قالت : فهل تعرف ماذا تفعل بها ؟

قل : لا

قالت : اذن فقم .

احسان

ثم انه كان بعد ذلك بقليل يسير بهما مركب كبير مقفل يجتاز طرق المدينة فى عجلة حتى بلغ حيا قذراً من أحيائها فأمسكت الجياد ونزلا فاجتازا والسائق « حواريه » الى بيت صغير حقير أسود الجدر باليها من قدمه ونطاول العهد عليه لم يسكن البؤس فيما سكن بيتا أفضل منه فدفع السائق الباب ودخلا فلقيا امرأة هزيلة مريضة على فراش رث ممزق وصبية يبكون صفر الوجوه نحل الاجسام من المرض والجوع فلما رأتها المرأة تحركت فى فراشها ولكنها لم تقو على النهوض والتف الصبية حولها يتمسحون ويلثمون بنانها فرحين متهللين ضاحكين

قالت الفتاة : كيف حالك الآن ؟

فقالت المرأة : حمد لله وشكر لك ورحمة لا تفارق دارنا اعتناؤك بنا ولا يزال الطبيب يعود وأشعر بخفّ وقوّة . آجرك الله على احسانك ولا زلت بارة بنا رحيمة بأمثالنا . ثم ضعف صوتها واغرورقت عيناها بالدموع .

قالت الفتاة وهى تضع على الفراش قبضة من النقود : انى الآن على عجل وأرجوا ان أراك ناقهة فى الغداة .

قالت المرأة : رحمك الله على رحمتك بنا .

ثم خرجا فغشيا داراً أخرى أشدّ قذارة وفاقة واذا شيخ عجوز كثير الأسنان فى أطمار ممزقة رثة وتنسدل لحيته الكثّة الجعدة على صدره فلا يكاد يتكلم حتى تهتز فى رفع وخفض خافت الصوت ضعيف الانفاس مدرود الاسنان مغضن الوجه كأنه مثال من العظم يكسوه جلد كثير الغضون ثمّ لا لحم ولا دم فاذا تحرك ففى ضعف وفتور كأنه ميت يهم بالنشور . والى جواره فتيات فى اقتبال الشباب مهزولات معتلات من الجوع والشقاء فى ثوب خلق قذر من أقذار الدار فلما رأتها نهضت اليها تقبل يدها وتبكى

قال العجوز انى كثير الخجل يا مولاتى فلا مقعد ولا فراش يجلسان عليه .

قالت العاهر : كيف حالك اليوم ؟

قل العجوز : حالى كحال قومى . فاقة ومرض وشقاء .

فالتفتت الى الفتاة وسألت : وأنت ؟

قال العجوز : حمّت أمس وأبى الطبيب أن يعودها .

قالت العاهر : ولماذا ؟

قال لانه لم يقض أجره وليس لدينا ثمت ثمن العشاء على أجر الطبيب ولهـا ليلتان لم تذق فيهما طعاماً ولم تنم فيهن أعفاءة .

قالت العاهر : وما أجر الطبيب

فتنهد الشيخ وقال : قليـل . علم الله لا تكفى نفقة لجرو من جرائه ثلاثون درهماً . ثم لا يتجاوز عنها لمعتل بائس .

قالت الفتاة : سيعودكم الطبيب حتى تقووا . ثم ألقت اليه قبضة من الذهب وخرجت

ثم لم تر الشيخ الفانى قائمـاً على قدمين مضطربتين ورأسه الى السماء . ولم تسمع دعاءه الحار . ولم تر الفتاة باهرها ومض الذهب الملقى .

ثم غشيا داراً أخرى من مثل هذه الدور واذا لم يبلغا صحنه سمعا صوتاً ينادى : أيتها السيدة . رحماك . ورأت غـلاماً عارياً يرعد لا تكاد تكسو أطماره نصفه فالتفتت اليه وقالت : ماذا تريد؟

فقال الغلام : أرسلنى أبى الى ههنا كى أدعو لأمه المحتضرة طبيباً ففقـدت النقود وضلت الطريق وأنا من قوم فقراء مفتاقين

لا يغتفرون لى اهمالى ولا يرضون عن عملى . وأرشدنى الى رحمتك قوم خيار من أهل هذا الحى فاعطنى وأثابك الله نفقة الطريق وأجر الطبيب ثم سجد على وجهه وجعل يقبل أقدامها ويبكى .

فأنهضته الفتاة برفق وسألته أين الدار ؟

قال الغلام فى قرية كذا على بعد قريب

قالت العاهر : بل أجىء معك ويجىء الطبيب .

ولم يقل الشاب واسمه « عبد الله » اثناء ذلك كله شيئاً ولكنه كان دهشاً جامداً ساهماً كثير القطوب والتفكير . . . .

أما أنا فتاركهم قليلا رضى أو لم يرض القارئ لأنى أعود عودة أخرى الى ماض أخير

استغفار

فأما ان علم الوالدان فقد ابنتهما فتداعا وجزعا وقد بحثا وفتشا وسألا واستعرفا ولم يجد كما لا يجدى البحث الطائش شيئاً . وبكيا وحزنا واعتلجت الهموم بين جنبيهما واختلفت الآلام عليهما وخارا الله واستسلما الى قضائه ولم يفتر حبهما ولم يتغير وكان فى القضاء أشد استمساكا ثم اعتزلا العالم واعتكفاه

ولم يمض قليل حتى فقدت سعاد خالداً أيضاً فانتظرت أن يعود

وانتظرت طويلا ولم يعد فكانت المصيبة الثانية أكثر مما يحتمل جسمها النحيل ونفسها الحزينة فهزلت ونحلت وغدت « الفتاة » فى العشرين من سنها « عجوزاً » فى سن الاربعين كثيرة القطوب والغضون تقرأ فى وجهها عبرة الأسى وغبرة الهم . ولم يبق لها فى الدنيا إلا خادمها الاسود الامين : آدم .

ثم استوحشت دارها وملّت حياتها فذكرت شقاءها وأساها وذكرت أمها وأباها فكتبت اليه من دموع عينها وافلاذ قلبها كتاباً استعبرت فيه واستغفرته ما شاء الله ان تفعل صورة من نفسها المحزونة تلمس فى كل حرف من أحرفه وكل رقعة من رقعها جذوة نار تلتهب فى أحشائها . تقول فى آخره .

« وانكما يا أبتى ان كنتما لا تزالان تلقيان على ابنتكما عقوقها فقد انتقم الله منها قدر نقمكما عليها فان بقى فى قلبيكما باقية من الحب لها فاغفرا ذنبها وارحما ذلتها وحزنها فقد كفاها ما فعل الله بها »

ثم جاء والدها وأقام معها وعلمت منه موت أبيها غما وحزناً عليها.

ثم مات الميتة التى ذكرت فى أول فصول « الرواية »

وكانت تعيش الآن سعاد فى منزل صغير عيشة الزهّاد والنسّاك هموم وأياس واستغفار فلم تكن تفارقه طوع العادة الا يوم الخميس الى قبر الشيخ فتقيم باكية منتحبة ناشجة آنّة ثم تعود فلا يراها ثمت أحد إلا الخادم الأسود .

فانها لمقيمة فى غرفتها تستعبر وتبكي اذ طرق الباب وما طرق الباب قط لزائر منذ عهد بعيد ثم دخلت عليها إمرأة محتجبة فى مرط (١) أسود

قالت المرأة :

انك لم ترنى يا سيدتى إلا مرة واحدة وأظننى اليوم تنكرت عليك ولكن لا يدخلنك ريب منى فانما جئت اليك مستغفرة

فنظرت اليها سعاد طويلا ثم قالت لها : اخبرينى من أنت يا سيدتى ثم قولى ما تشائين

قالت المرأة :

أنا جارتك القديمة مىّ فان تذكرينها فقد أسأت اليك من غير ما تسيئين اليها وكانت أعمت قلبها الغيرة والبغضاء ودائماً يعميان قلوب الأشرار وهكذا أيضاً فالنفوس السيئة تسيء دائماً الى الناس من غير ما يسيء الناس اليها .

فتأوهت سعاد وقالت لها : انك تؤلمينى بحديثك أيتها السيدة وما اذكر انك أسأت الىّ قط .

قالت مىّ : بل ان كل ما أسيء اليك فى ابنك وزوجك كنت سبيل الشر اليه .

---

(١) رداء ترتديه المرأة فوق ثيابها لتحتشم به وهو ما يسمونه « الملاءة »

فتقضبت سعاد حاجبها وسهمت قليلا . ثم قالت انى لا أفهم ما تقولين .

قالت مى :

ذلك لأنك نقية القلب فاضلة النفس أما انا فظالمة عاتية وشريرة شقية حتى خشيت ان اطمع فى رحمتك وغفرانك فانقمى على ما تنقمين فانى لا ألتمس منك إلا ان تذكرى بينك وبين نفسك انى استشهدتك على ذنبى واستغفرتك .

اصبرى أقص عليك القصة :

ان الغرام الذى مزق قلبى الهزء به والسخر منه واحتقاره استحال كما يستحيل الجمر المتقد فى الجمرة الى « رماد » تقذى به العيون اذا تناولته الريح وكان كالهشيم الجاف اذا اسّاقطت عليه شرارة فاستعار ناراً تضطرم بين أضالعى وتحرقنى كلما تقلبت عليها. وقد بقى منه فى نفسى اثر سيء كما يبقى دائما لكل شيء اثر وانما للحسد والبغضاء ثم اشتدّا فيها حتى لم أتمالكهما فجنحت جنوح النفوس السيئة الى الشر ورغبت فى مذهب منه وابتغيته من طريق غير شريف وكان سبيلها اليه حفيظة لم تزل تختلف على قلب آثم فى نفس شريرة من رجل اعرفه (١) كان قد حفظنى خالد من سوئه وحفظ عليه الرجل فاختطف ابنتك من مهدها وهيأت له السبيل ثم

(١) هو « فؤاد »

أوحى ان يقتل زوجك فقتله قوم رعاة أشرار .

وهنا صرخت سعاد صرخة شديدة . قالت مى :

وحييت معه حياة العشاق فى فجور ودعارة واستهتار ثم ملنى كما يملّ العاشق عشيقته وملته . وهنا . ودنما يكون هنا . ظهر لى فساد عملى وندمت عليه .

ثم بكت مى وبكت سعاد

قالت : وأين ابنتى

قالت : عرفت المكان الذى أذهبها اليه وربما عرفنا مذهبها منه .

قالت : وأين هذا المكان .

قالت : قومى معي . . .

المشهد الأخير

فانتهيا أخيراً الى الدار فدخلاها فاذا عجوز تحتضر فى مهاد مهلهل قذر والى جوارها رجل يكفينى ان أصفه بقولة « شرير » فتقدمت مى الى العجوز وقالت لها : هل أرجو أن أعرف منك أيتها المرأة الفانية اسمك ؟

فتململت العجوز فى مرقدها وقالت بصوت مضطرب خافت :

عائشة

قالت : وابنك هذا اسمه « زيدون »

فهزت المرأة رأسها اشارة الايجاب .

قالت مي :

انك تموتين يا امرأة ولم تتزودى من دنياك لآخرتك إلا بالمعاصى والآثام ومثواك جهنم لا ريب مثوى الاشرار فحدثيني حديث الفتاة التى احتضنتها وارشديني الى مذهبها ومقامها يغفر لك بذلك بعض ذنبك

وكان لا يرى الرائى من المرأة العجوز إلا هيكلا ضئيلا فى جسم ناحل معتل تشرف منه عظامها وأضلاعها اشرافها من اجساد الاموات فى « ديار الآثار » ولكنها رمما محنطة والمرأة لا تزال تتردد فيها روحها وتتراسل انفاسها وتسترسل نظراتها الفاترة استرسالا مضطربا من اعين كليلة مريضة الحدق فلما قالت مي هذا المقال نظرت اليها نظرة قصيرة ثم فتحت فاها ولكنها لم تقل شيئا

وهنا دخل الدار امرأة وثلاثة رجال أعرفهم كما يعرفهم القارئ . اما الرجال فثالثهم الطبيب واما المرأة فكانت دهشة مبهوتة تنظر فى انحاء المكان وأجزائه بنظر حائر مضطرب ثم أقبلت فى هدوء وسكينة على فراش المرأة المحتضرة وقالت لها : ان اسمك عائشة فهل تتذكرين فتاة صغيرة كانت تلقى منك أشد

ما تلقى من العذاب فتاة مسكينة من امرأة شريرة قاسية القلب وكانت تدعوك أمها وكانت تلعنك دائماً بينها وبين نفسها وها أنت الآن تتحدرين الى الموت مثقلة فى اغلال من شرك وأثمك فقولى أين أمى ان لم تكونى « إياها » ولا شك انك لست « هى » فان قلبى لا يحفظ لك إلا الكره والبغضاء ولم اشعر نحوك قط بما يشعر به الابناء نحو الامهات واعلمى انى أغفر لك اساءتك وذنبك لانك صائرة الي مصير احوج الى الرحمة والغفران وانما اذا صدقتنى الخبر وأرشدتنى الى امى . انا لا احب ان اراها وانما احب ان اعرف المرأة التى تلد اولادها للطرق وتصاريف الاقدار

فتحركت المرأة فى فراشها بعنف ورفعت ذراعها واشارت الى مى...

وانحنى الطبيب على العجوز الفانية

واذا سعاد تقبل على الفتاة مستعبرة باكية فرفعت الفتاة رأسها ونظرت اليها نظراً جامداً طويلا ثم قطبت جبينها وقالت لها : الى م القاك امامى .

قالت سعاد لا ترعى يا ابنتى ولا تجزعى فانى سمعتك تتحدثين عن امك وانا اعرف اين امك التى ترجين

قالت : ما رجوت ان تعنى بغير امرك .

قالت المرأة وانا انا امك

قالت الفتاة :

ما ظننت ان تكوني امي قط . وما ندمت على شيء ندمي على فضلي اذا قدرت ان انقاذي لك فضل مني . فني اكره الخير لاني لم ألفه في الحياة والحياة لا يلقى فيها مثلي الا الشر . ثم انظري اليّ طويلا : ان الأطمار الرثة والمزق البالية التي ترديتها استحالت الى حرير وخز فهل تعرفين كيف تستحيل الاجرام المظلمة الى كواكب وضاءة منيرة ؟ . يقولون ان الشمس ترسل عليها شعاعها فتضيء وتألق ولكن ابنتك ارسل الظلام عليها دجنته فضاءت وائتلقت فهل تظنين ان هذا الضوء كضوء ترسله الشمس ! . كلا يا اماه فانه ضوء خادع مريب . اذهبي الى دارك فان المرأة الفاضلة لا يهنؤها ان تكون ابنتها فتاة عاهر . اما أنا فدعيني اذهب لحالي فان لي اقواماً يحتاجون اليّ واحتاج اليهم

فصرخت سعاد صرخة شديدة ومدت اليها اذرعها وبكت . ثم قالت :

كلا لا تذهبي يا ابنتي سواء كنت فتاة عاهراً او غير عاهر فكيف تظنين اني اظل حزينة عليك باكية سبعة عشر عاماً ثم اذا وجدتك هجرتك لان القدر انشب فيك اظفاره واكثرما ينشب القدر اظفاره في امثالك وانا الذي دفعتك اليه . تعالي يا ابنتي اضمك الى صدري فان اشد ما يكون الشوق ان اضمك اليه .

قالت اسماء : ولا تأسي ولا تأسى وان ابنتك لا تزال فتاة عذرا.

ثم ألقت نفسها بين أذرعها وبكتا

ورأت مى هذا المشهد فجعلت تبكى أيضاً .

واذا حشرجة الموت تعتاج فى صدر المرأة الفانية . وقد اصفر وجهها اصفراراً شديداً وجحظت عيناها ولم يبق بها من أثر الحياة الا ضوء ضئيل ينبعث من حدقها ثم فتحت فاها وقالت : اغفرى لى يا أسماء .

فأقبلت عليها الفتاة وجثت عند أقدامها ورفعت رأسها الى الله ضارعة

وجثت المرأتان وراءها .

وفقدت العجوز الحياة

وكان فى أقصى الغرفة رجل مهموم مكتوف الذراعين خافض الرأس كأنه تمثال منصوب فى معبد من تماثيل « القديسين »

وقالت سعاد اخيراً : دعينا يا اسماء نفارق هذه الدار وتعالى أهنأ بك يا ابنتى واسعد .

فنظرت الفتاة الى الرجل نظرة رقيقة هادئة وقالت له : وتعال معنا يا أمين »

ثم تركوا الدار وانسدل الستار .

جاء فى المطبوع أغلاط كما يجىء دائمًا اشرت اليها فيما يلى . . . . .
وأعتذر الى القارىء عنها وعن الطابع وأرجو أن يصححها فى الكتاب :

صحيفه	سطر	الخطأ	الصواب
٧	٢	يشعز	يعشز
٧	١٤	تحبي	تحيى
٩	٩	متدفقة تدفم ماء	متدافعة تدافع نار
١٨	١٣	فى اذا	اذا
٢٤	١٨	وصيائه	وصيانة
٢٥	٧	معرفته به	معرفته
٣١	١٧	غاضبة	غاضية
٥١	٨ر١٦	المفوفة	النفوفة «بتشديد الواو»
٦٢	١١	أحدافها	أحداقها
٦٥	١١	الصراع ارتاع	الصراع وارتاع
٦٦	٤	نفس	نفسى
٧٣	الاخير	الخلق والخلق :	الخلق والخلق
٧٨	١٨	القليانه	القاليله
٨١	١	الصمة	الصمة «بتشديد الميم»
٨٤	١٤	ستى	شتى
٩٧	٣	هائه	هائلة
»	١٣	شاطىء	شط
»	١٧	لطفة	طهفة
١٠٤	٥	«علم الحياة الطبيعية» :	«علم الطبيعة»
١٠٥	١	تزوجت	وتزوجت
»	١٥	يعرف	ويعرف
١٠٦	٣	المعبر	العارّ
١١١	الاخير	ان ايه	أنه

oberkandl.com

صحيفه	سطر	الخطأ	الصواب
١١٣	١٧	يسعرون	يشعرون
١١٥	١٠	والامى	الامى
»	»	وهما	ومى
١١٨	١	تترحرج	تترجرج
»	٢	التشقى	التشقى
»	١٦	واعتمدت	واعتمد
١١٩	٣	يسار	يسر
»	٥	يتساران	يسران « بتشديد الراء »
١٢١	١	كان الفوانس	وكان الفوانس
١٢٢	الاخير	نسيمامعتيقا :	نسيم معتبق
١٢٤	٩	الفاضة	المفاضلة
»	١٧	النظار	« النظارة بتشديد الظاء »
١٢٧	٩	سفى	سقى
»	١٠	يكن	لم يكن
١٢٨	١٠	تقسفها	تقشفها
١٢٩	١١	لأنها تحمل	لأنها لاتحمل
١٣٢	١٢	تدأث « ٣ »	تدأث « ٤ »
	الأخير		« ٤ » تأكل
١٣٣	٣	حدائقا . غطارفا :	حدائق . غطارف
١٣٨	١١	المتغر :	المتغر « بتشديد التاء »
١٤٠	١٨	« جانجا »	جانجا « بجيم الفرنجة المعطشة »
١٤٠	١٩	قواد	قواد « بتشديد الواو »
١٤١	١٣	رأفة	رانه
»	١٤	الحياة	القتاة
»	٥١	فأحتوت	فاحتوت

وبعض اغلاط اخرى يسيرة

obeikandl.com